خالد زيادة

حكاية فيصل

رواية

دار الشروق

حكاية فيصل

حكاية فيصل

خالد زيادة

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

الطبعة الأولى ٢٠١٢

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٣١٠١/ ٢٠١٢
ISBN 978-977-09-3112-7

خالد زيادة

حكاية فيصل

رواية

دار الشروق



تقديم

يوم السبت ١٠ حزيران/ يونيو ١٩١٦، خرج الشريف حسين بن علي إلى شرفة قصره في مدينة مكة، وأطلق رصاصة من بندقيته معلنًا بذلك بداية الثورة العربية الكبرى. ومنذ تلك اللحظة دخل العالم العربي في حقبة جديدة من تاريخه لم تتوقف تداعياتها حتى يومنا هذا.

وكانت الإرهاصات الأولى بالثورة قد بدأت قبل سنوات قليلة، حين بدأ الشباب العربي المتأثر بالأفكار الدستورية والحرية والاستقلال بتأسيس الجمعيات السرية وأبرزها جمعية «العربية الفتاة». وقد اشتدت الدعوة إلى الاستقلال العربي، بعد أن وقعت الدولة العثمانية في قبضة الضباط العسكريين من أتباع جمعية «الاتحاد والترقي» وبعد أن ازدادت الدعوات إلى التتريك. وما إن بدأت الحرب العالمية حتى انخرطت تركيا (الدولة العثمانية) في أتونها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء، الأمر الذي زاد من نقمة العرب.

في هذه الأثناء قام أمير مكة الشريف حسين بن علي بالمراسلات مع الإدارة البريطانية في القاهرة وحصل على وعود من ممثل الملك

السير مكماهون بإقامة مملكة عربية على أن يشارك العرب بالحرب إلى جانب الحلفاء. وتحضيرًا ليوم الثورة، قام الأمير فيصل وهو الابن الثالث للشريف حسين باتصالات سرية، مع الشباب العربي في دمشق. التي كانت مقر الحاكم العسكري جمال باشا الذي بطش بالأحرار العرب وعلق مشانقهم في دمشق وبيروت في ٦ أيار/ مايو ١٩١٦، مما سرع الخطوات باتجاه الثورة.

كان جيش الثورة العربية يتكون من أبناء العشائر التي انضمت تباعًا، ومن ضباط سوريين وعراقيين انشقوا عن الجيش العثماني، يضاف إلى ذلك عدد من المستشارين العسكريين الإنجليز والفرنسيين.

وكان أحد ضباط الارتباط الإنجليزي الرائد لورانس، الذي سبق أن عمل في التنقيب عن الآثار في سوريا والجزيرة العربية، وهو أقرب إلى المستشرقين على نمط ذلك الزمن، وانضم إلى الجيش البريطاني وخدم في فرع المخابرات وأرسل إلى الجزيرة بعد إعلان الثورة ليكون ضابط ارتباط مع القيادة البريطانية في القاهرة. وقد كتب لورانس سيرة لدوره في الثورة العربية، التي جعلت منه كاتبًا مرموقًا، صور نفسه في كتابه الشهير «أعمدة الحكمة السبعة»، كما صورته الدعاية الإنجليزية، قائدًا لهذه الثورة ومحركها.

إن القائد الحقيقي لهذه الثورة، منذ أن أضحى قائدًا لجيش الشمال هو الأمير فيصل ابن الشريف حسين، الذي كان يتأهل لهذا الدور منذ مباشرته الاتصالات بالجمعيات السرية وأعضائها من الشباب العربي.

كان فيصل يتمتع بمواهب القيادة كأمير عربي، فضلًا عن خصاله التي حببت إليه الذين عملوا تحت إمرته، الكرم والحلم والتسامح، فضلًا عن تردده وضعفه وغضبه أحيانًا، وانخراطه في المفاوضات مع الدول الكبرى والتي لم يكن مؤهلًا للخوض فيها.

تعكس شخصية الأمير فيصل التناقضات، الانتصارات والإخفاقات التي حفلت بها سنوات الثورة، من خلافات الضباط والعشائر وتناقض مصالح الدول حول العرب، إلى المعاهدات والمؤتمرات، إلى الهزيمة وخسارة المملكة وحلم العرب بإقامة دولتهم المستقلة.

تلخص الجوانب الذاتية في سيرته، سرّ خصاله، تأثره بوفاة والدته، وكان بعدُ في سنواته الأولى، علاقته المضطربة بوالده، وحسد أشقائه، وعدم انقياد أتباعه له، ومعاناته جشع رؤساء القبائل وخياناتهم.

ومن جهة أخرى كان فيصل شخصية ساحرة ومؤثرة وخصوصًا بالنسبة للذين آمنوا بزعامته، كان يملك جاذبية خفية، كأمير عربي خطف الأنظار حين حضوره في مؤتمر الصلح في باريس، لكنه لم يكن مفاوضًا بارعًا في قضية شديدة التعقيد، فكان وحيدًا أمام الدبلوماسيين الإنجليز والفرنسيين. ومع ذلك فإن فيصل يكاد يكون الوحيد الذي نُصب ملكًا على بلدين.

تدور أحداث هذه الرواية في لحظة الهزيمة حين اضطر فيصل وقد أضحى ملكًا، أن يغادر عاصمة ملكه دمشق بعد الانكسار أمام الفرنسيين في اليوم المشهود، يوم ميسلون. بعد استشهاد وزير دفاعه وتفكك قواته. إن معركة ميسلون التي لم تستغرق سوى ساعات

قليلة من يوم ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠، أضحت في الذاكرة العربية المشرقية بمثابة بداية الصراع مع الفرنسيين والتحرر من الاستعمار.

إنها لحظة تاريخية ورمزية في نفس الوقت، كما هي شخصية فيصل في هذه الرواية التي تتيح للراوي، الذي هو البطل نفسه، أن يتذكر كل مراحل الثورة في رحلة المغادرة التي ستقوده إلى مملكة أخرى.

إنني سعيد أن أقدم حكاية فيصل للقارئ العربي في مصر، وأغتنم المناسبة لشكر الصديق إبراهيم المعلم الذي أتاح لهذه الرواية أن تطل عبر دار الشروق.

خالد زيادة

القاهرة ١/ ٨/ ٢٠١١

١

مرات عديدة فكرت أن أدوّن يومياتي، لكنني لم أفلح فيما عزمت عليه. كانت انشغالاتي تمنعني من إكمال تسويد صفحة واحدة. أتتني فكرة كتابة مذكرات لأول مرة، قبل خمس سنوات حين التقيت عددًا من أعضاء جمعية العربية الفتاة في دمشق إبان زيارتي لها. كانوا يناقشون ويجادلون ويبسطون آراءهم وحججهم بيسر، وحين يجدون سانحة يخرجون دفاترَ صغيرة من جيوبهم ليدوّنوا أسطرًا قليلة أو ملاحظات ويعيدونها من حيث أخرجوها. وحده نسيب البكري كان يحذّر رفاقه من هذه العادة، كان يقول: لو وقعت هذه الدفاتر في أيدي رجال الخفية لقضت علينا وعلى جمعيتنا. كان سليم الجزائري أول من لفت انتباهي إلى هذه العادة التي تعطي صاحبها مظهر الرصانة والتفكر. يُخرج دفترًا صغيرًا من جيب سترته ويلقي نظره بعيدًا قبل أن يمسك القلم بأناة، يسترسل في الكتابة لدقائق ثم يعود للمشاركة في الحديث. كان أعضاء العربية الفتاة أشخاصًا يعتقدون أنهم يصنعون شيئًا خالدًا فالكتابة هي صلة الكائن بالخلود، كانوا يظنون أنهم يصنعون التاريخ وأن نشاطهم واجتماعاتهم وأفكارهم هي جزء من هذا العصر، وقد جعلوا

أنفسهم شهودًا على ولادته. لقد تأثرت بتلك الأفكار حتى اعتقدت بأن الأمور العظيمة قد تتوقّف على رأي أو قرار يتخذه رجل يعرف كيف يقرأ الأحداث والوقائع، ويعرف كيف يقنع الرجال بالالتفاف حوله والإصغاء إليه والسير معه حتى النهاية.

أغرتني دائمًا فكرة أن أضع دفترًا صغيرًا في جيبي، أخرجه لأسجل ملاحظة أو فكرة، لكنني أهملت الأمر إذ أخذتني المشاغل فلم أعد أجد وقتًا أخلو فيه إلى نفسي، فتركت لذاكرتي التي وثقت بها أن تحفظ الوقائع والأحداث، لأنني آمنت أننا نحن أبناء البادية لا ننسى مهما طال الزمن، وكنتُ أجد في والدي مثالًا على العربي الذي لا يمكن لمرور الزمن أن ينسيه شيئًا مما آمن به وثبت عليه. ولطالما اعتقدت أن الذاكرة هي ابنة العناد، فأولئك الذين لا يحيدون عن أفكارهم قلما تستطيع أن تنزع من رءوسهم ما عزموا على فعله. كان فايز الغصين، وهو بدوي من عرب اللجا، تعلم في المدارس حتى حصل على شهادة الحقوق، لا يضطرّ إلى تدوين شيء على الورق خوف نسيانه. حين يبدأ بسرد الوقائع التي عاشها يشعرك أنه يقرأ في كتاب، وكان يملك فوق ذلك موهبة الرواية ويملك زمام الحديث ويترك مستمعيه صامتين لساعات. ولكن أغلب أبناء المدن، أولئك الذين تعلموا في إستامبول كانوا قد اكتسبوا عادة الكتابة والتدوين، يقلدون بعضهم بعضًا، يخرج أحدهم كراسًا ليسجل أبياتًا من الشعر حضرته، وآخر ليسجل خواطره أو يومياته. كان يدهشني أولئك الفرنسيون والإنجليز الذين انضموا إلى جيشنا كيف يعتبرون أن تسجيل الوقائع أهم من حدوثها. يعود الواحد منهم من المعركة ليجلس في مكان منعزل ويبدأ بالكتابة قبل أن ينفض عنه غبار

الخطر الذي كاد أن يفتك به. كان بريمون، وهو ضابط فرنسي رافقنا في جيش الشمال، يقول إن أي حادثة مهما كانت خطيرة ستقع في النسيان إذا لم تجد أحدًا يعطيها نصيبها من الذاكرة المكتوبة. أما لورانس فكان يثير سخرية أكثر الأشخاص رصانة، حين ينفرد بنفسه في ركن منعزل لساعات لا يمل من تسويد الصفحات ورسم المواقع والأشخاص والمشاهد. وكنتُ أتساءل في نفسي إذا كان شجار بين أبناء عشيرتين يستحق أن يسجّل ويدون في الكتب، أو أن هبوب عاصفة أجبرتنا على إيقاف مسيرتنا لبعض يوم يستحق أن يحفظ في الصحائف. لقد كان يصرّ على تدوين كل شاردة حتى حسبت أنه لم يأت لمشاركتنا حربنا، وتعريض نفسه للأخطار، إلا من أجل أن يحظى بمشاهدات حيّة يسجلها على أوراق كانت أشدّ الأشياء قيمة عنده.

كان والدي يحرص على تدوين أوراق ومذكرات يخفيها في أدراج مغلقة، أما الشريف ناصر الذي درس في صباه لدى فقهاء المدينة فيعتبر أن العلوم الحقة قد دونت في تصانيف العلماء. وكان الشريف علي الحارثي الذي لم يكن يتجاوز العشرين من العمر عندما انضم إلى الثورة يطلق الضحكات الساخرة حين يرى ضابطًا يقرأ في كتاب أو يدوّن في كراس ويقول إن ضربة سيف واحدة أهم من كل ما تحتويه مكتبة جَده في مكة.

لطالما رغبت في الكتابة، ولا أنكر أنني جربت الأمر مرات عديدة. كنت أسجل ما أعتبره هامًّا وضروريًّا، مثل لقاءاتي مع الموفدين الأوروبيين، أو تواريخ بعض المواعيد مع تسجيل أفكار وملاحظات. وقد ضاعت هذه الأوراق المتفرقة، ولكنني أظن بأن

رسائلي إلى والدي وإخوتي، كذلك مراسلاتي مع القيادة الإنجليزية في القاهرة قد حفظت ليس كأوراق خاصة، بل كوثائق و مستندات. علمت منذ بعض الوقت أن أخي زيدًا كان يسجل بعض المذكرات منذ أن انضم إليّ في العقبة، والحق أنني لم أجد الوقت لأسأله عن الأمر. أما أكثر الأشخاص التزامًا بتدوين يومياته فكان رستم حيدر الذي انضم إلى جيشنا في الأشهر الأخيرة للثورة قبل الدخول إلى دمشق، كان أشبه بموظف يعتني بمواعيده، وكان يهتم كما علمت، بأن يسجل ولو أسطرًا قليلة كل يوم. سأسأله عن أوراقه إذا التقيت به مرة أخرى.

لعلّ الكتابة أشد ما تحتاج إلى الوحدة. ولأول مرة منذ أمد بعيد أشعر بوحدتي وعزلتي. إنني وحيد أفكاري ومشاعري وتتملكني رغبة عارمة بالكتابة. وما يدفعني إلى ذلك رغبتي أن أسجل للتاريخ حدثًا ستذكره الأجيال المقبلة، فلا بدّ لمن شهد الواقعة هذا الصباح أن يرويها لأولاده وأحفاده.

كانت تشغلني فيما مضى الأحداث عن تدوين أخبارها، وكنت أظن أن صنع التاريخ أجدى من وصفه، حين تكون وسط الحدث لن تجد متسعًا من الوقت لتسجيله. لم أجد خلال السنوات الخمس الماضية التي مرت سريعًا، ساعة أخلد فيها إلى نفسي لأراجع ما جرى أو لتسجيل خواطري. كنت في سباق مع الزمن، في سباق مع التاريخ الذي كنت أصنعه وفق أفكاري وقراراتي حتى صار يشبهني وينتسب إليَّ، وصارت الدولة التي أقمتها مقرونة بي يسمونها باسمي أو لقبي الشريفي. ولا شك بأن الهزيمة هذا الصباح ستكون هزيمتي وحدي.

أكتب هذه الساعة التي تسبق المساء وحلول الظلام، إذ أجد نفسي وحيدًا للمرة الأولى منذ سنوات عديدة. أجلس في المقصورة التي خصصت لي في هذا القطار المتوقف في بلدة صغيرة إلى الجنوب من دمشق قلّما تجدها في خارطة. وأولئك الذين سيصلهم الخبر، سيمضون وقتًا قبل أن يعثروا عليها في خرائطهم ومعاجمهم. لقد سجل اسمها بالأحرف اللاتينية للمرة الأولى، حين قرر الذين رسموا تصاميم الخط الحديدي أن يجعلوها مقرًّا لمحطة من المحطات المنتشرة على امتداد سكة الحجاز بين دمشق والمدينة، ولعلني أنا الذي جعلتها علمًا حين توقفت فيها أنتظر دخولي ظافرًا إلى دمشق، بعد أن حقق جيشنا النصر على الأتراك. كان ذلك قبل اثنين وعشرين شهرًا، وها أنا أدخلها التاريخ مرة أخرى لأنني جعلتها مقرًّا مؤقتًا لحكومتي بعد انسحابي من دمشق.

خرجت من قصري قبيل فجر هذا النهار، بعد أن أمضيت ساعات الليل الأخيرة ساهرًا مع أعواني ووزرائي. ارتديت بزتي العسكرية، ومضيت إلى الجبهة كما يليق بقائد أن يكون على مقربة من جنوده. كانت المساجد تستعد لأذان الفجر حين عبرت شوارع المدينة الغافية التي أقلقتها أحداث الأيام الفائتة. سلكت طريق الغرب متوجهًا صوب الهامة التي وصلتها ولم تكن أنوار الصباح قد أشرقت. كان السكون ما زال يرخي ظله لا يكسره سوى مرور حافلة أو عبور المتطوعين. لبثت صامتًا منتظرًا ولم يكن لديّ شك بأن المعركة ستبدأ بين لحظة وأخرى.

أطلت أنوار الصباح الأولى حين تناهت إلى مسمعي. أصوات المدافع التي أيقظت في نفسي ذكريات المعارك التي خضتها خلال

سنتين من الثورة. وأثارت الحركة التي دبت حولي الحماسة في صفوف القوات التي تشكل خط القتال الثاني، فتسربت إليّ. لم أكن أتوقع النصر على جيش مجهز بالمدافع والمركبات والطائرات، ولكنني كنت آمل من الجنود والمتطوعين أن يصمدوا، أن يطيلوا أمد المواجهة حتى يسمع العالم صوتنا ويصغي لقضيتنا.

لم تلبث أنوار الصباح أن غطت فضاء الهامة بأضوائها التي تحمل حرارة شهر تموز في هوائه الثقيل، وتبدّت لي المسافة التي تفصلني عن موقع المعركة التي كنت أحسبها عبر أصوات القذائف والطلقات المتبادلة. كانت الحركة وجلبتها تزداد حولي حين لمحت السيارة التي تقل أخي زيدًا آتية من دمشق، توقف هنيهة وتابع سيره باتجاه ميسلون. كان دويّ المدافع يزداد كثافة واقترابًا فيما طائرات الجيش الفرنسي تحلق في السماء عاقدة دوائر تمتد أميالًا لتصوب طلقاتها التي أسمع أزيزها فوق الموقع الذي أقف فيه منتظرًا. انتابتني مشاعر القلق حين سمعت بوضوح صوت اقتراب المدافع. ولم يطل الوقت حتى رأيت سيارة زيد تسرع في العودة، وقبل أن تتوقف قفز وتقدم نحوي ليخبرني: لقد قضى يوسف العظمة، أصابته قذيفة ومات في أرض المعركة.

ما أصعب أن تكون ملكًا يتلقى خبر هزيمته في أرض المعركة. كنت أقف جامدًا ومرهقًا في عزّ حرارة شهر تموز (يوليو). لم يكن أحد ليعبأ بوقوفي في هذا الموقع لحظة أخذ الذعر يتفشى مع تقهقر الجنود والمتطوعين المسرعين في تراجعهم كأنهم يفرون من خطر يتعقبهم. يلتفتون إلى الخلف ويرفعون أصواتهم يطلبون إنقاذ

الجرحى ونقل القتلى من ميدان المعركة. أدركت في تلك اللحظة أن كل شيء قد انتهى.

لم يكن أحد ليهتم بوقوف ملك في أرض المعركة. السيارات تسرع نحو المدينة تنقل الجرحى، والمتطوعون الذين وصلوا يوم أمس يتقهقرون على أقدامهم. جاءوا يحملون البنادق والعصي والزاد كأنهم يخرجون في نزهة يهزجون بالأناشيد ويطلقون الشعارات من نوافذ القطارات التي نقلتهم إلى الجبهة، وها هم يعودون إلى حاراتهم يحملون قتلاهم ويجرون جرحاهم. يا لها من مكيدة لم أقدر على إيقافها، فشاركت فيها كأنني صانعها. وها هي الفوضى تعم المكان فلا تجدي الأوامر ولا تنفع التوسلات.

كنت شاردًا كأنني لا أسمع أصوات المدافع والطلقات التي يقترب دويّها. حين تكون بين فكي الهزيمة لا تعود تخشى شيئًا. لم أكن لأخشى الموت، لا في تلك اللحظة ولا في لحظات أخرى حام فيها فوق رأسي. أتذكر المرة الأولى التي قدت فيها الرجال حين وجهني والدي لقتال الإدريسي في عسير. كان ذلك قبل ثماني سنوات والمعركة تدور في أرض حارقة، لم أستطع تحمل القيظ فسقطت مغشيًّا عليّ فظنوا أنني قُتلت. في ينبع، بعد إعلان الثورة بأشهر قليلة، انهمرت قذائف الأتراك فوق المعسكر وكادت واحدة أن تطيح بخيمتي. لم يساورني الخوف في أي معركة خضتها، ولكنني أشعر الآن بالانكسار، وينتاب نفسي الألم أن أكون ضحية الذين أرغموني على قتال لم أكن أريده. لست حاقدًا ولكنني أشعر بالمرارة لأنني لم أقدر على إيقاف زحف الهزيمة التي أحاطت بي من كل جانب كأنها قدر لا فكاك منه.

شعرت أن النهاية قد دنت حين خرج الناس إلى الشوارع يطالبون برحيلي. كان ذلك قبل ثلاثة أيام. أخرجتهم الحماسة من أحيائهم إلى ساحة المدينة ومنها توجهوا إلى القصر يدفعهم قادة متهورون، استغلوا حماستهم وغيرتهم، وحضُّوهم على اتهامي بالتخاذل. كانت الحماسة أول أسلحتي أستثير بها همة الرجال. لكنها أفلتت في نهاية الأمر من يدي. إنها أشبه بتقلبات مزاج الصحراء مثل قيظ ظهيرتها وبرودة ليلها، تضارع البطولة أحيانًا وتتفشى مثل وباء أحيانًا أخرى. كانت عدواها قد انتقلت معنا على طول خط سير معاركنا، وحين بلغنا دمشق أقامت في وسطها وتنقلت بين فنادقها ومقاهيها ونواديها، وأصابت عدواها شبان الأحياء ورجالها ونساءها وأطفالها. كانوا يخرجون في كل المناسبات، يرفعون اليافطات ويرددون الشعارات ويطلقون رصاص البنادق في الهواء، في مناسبات الفرح يخرجون، كما في مناسبات الاحتجاج والغضب. عشرات الآلاف خرجت إلى الشوارع يوم دخلت إلى دمشق، وفي كل مرة كنت أعود إليها من سفر، تدفعهم الحماسة لاستقبالي مرة تلو مرة. هي الحماسة نفسها التي أخرجتهم قبل ثلاثة أيام يطالبون برحيلي، فشعرت بطعم المرارة وأحسست بأن النهاية قد اقتربت ولم يعد ثمة مجال لتفاديها.

لا، لست متيقنًا، لا من البداية ولا من النهاية! هل كانت البداية حقًّا حين أطلق والدي الرصاصة الأولى من شرفة دارنا في مكة معلنًا الثورة على الأتراك، أم أن الأمر أخذ يرتسم حين كان يخط مراسلاته السرية مع الإنجليز، أو أن البدايات قد كتبت في عواصم متباعدة، سنوات قبل أن يخطر على بال والدي أن ينقلب على

الخليفة؟ لست متيقنًا من أي شيء سوى أنني واقع في شرك لا أعرف كيف أخرج منه.

كنت أقف مثل نصب لا حراك فيه، أنظر في الفراغ كأنني أقرأ أقداري المتقلبة. في اللحظة التي يصافح فيها المرء مصيره تشرد الأفكار إلى البعيد. تذكرت والدتي واسترجعت صورتها العالقة في ذهني واستعدت مشاهد من طفولتي معها، كانت تحنو عليّ وتخشى من هزالي وشحوبي. أشعر بأن الطفل الحزين لم يغادرني، أو أن حزني على فراقها المبكر لم ينطفئ أبدًا.

تسلل إليَّ شعور بالشفقة على نفسي، وعلى أولئك الذين استسلموا لحماستهم، حين تلاشت كل مشاعري الأخرى. تساءلت: ماذا سيقول التاريخ عنّي؟ لم أكن أتوقع النصر، لذا سعيت إلى إطالة أمد المفاوضات وتقديم التنازلات لعلني أبدل المصير الذي سبق أن دون في المعاهدات. حاولت أن أغلّب السياسة والروية على الحماسة والهياج فيما يداي مغلولتان، وعيناي تبصران قادة الأحزاب يثيرون الناس في الشوارع ويحرضونهم على قتال لا قدرة لهم على خوضه. كانوا يستعجلون المواجهة. سواء أولئك الذين اعتقدوا أنهم سيكسبون من هزيمتي، أو أولئك الذين كانوا يحوكون الدسائس منتظرين أن يخرجني الفرنسيون ليفوزوا بالمملكة.

شيء واحد أعرفه، أنا الملك، ولا مملكة من دوني.

خواطر كثيرة مرت في ذهني حين كنت أنظر إلى مملكتي تتداعى وسط الغبار والفوضى. لم يبق لي سوى حفنة من الأعوان

بينما انفض الجميع عني، الذين رفعتهم وقفوا ضدي، والذين أغدقت عليهم المال تمردوا على أوامري والذين أحللتهم في المناصب استغلوا المناصب ليتآمروا عليّ. حتى أقاربي، أغرتهم المدينة بلهوها فانشغلوا بلهوهم عنّي. خسرت المال الذي أنفقته بلا حساب، وخسرت الرجال. أما حرسي الذي رافقني من الحجاز ولازمني سنوات، فقد أدخلته في المعركة ليخرج منها هذا الصباح حطامًا مهشّمًا.

أفكار كثيرة جالت في خاطري لحظة كنت أقف جامدًا أراقب المتراجعين من الجنود والمتطوعين. فكرة واحدة استبدت بي فأحسست أنها تكبلني وتخنقني، أشعرتني أنني صبي معاقب: ما الذي سيقوله والدي حين يصله الخبر؟ أتخيله في صدر بهوه وحوله الأعوان مطرقون، سينتفض ويغضب ويصرخ حتى يسمعه الحراس في الخارج. ويقول: «إن الولد فيصل عاق وخائن، وقد عاقبه الله على عقوقه لأنه لم يستمع إلى نصائحي». ولن يصمت إلا بعد أن يتعب من الصراخ، وبعد أن يقول بأنني أستحق هزيمتي.

شعرت أنني أعزل وسجين وحدتي. راودتني المشاعر ذاتها التي عرفتها يوم فقدت أمي. كنت لا أزال صبيًّا صغيرًا، فخسرت بموتها رفيقتي الوحيدة التي تداري هزالي وضعفي. حزنت ومرضت حتى ظنوا أنني مصدور، وصرت بعدها رفيق العزلة والصمت، أمضي أوقاتي شاردًا وأنزوي بعيدًا عن أقراني، أتحاشى والدي الذي يغيظه شرودي فيطلب إلى معلمنا صفوت العوا أن يقسو عليّ بالتأنيب والضرب. لم أكن حاذقًا مثل أخي عبدالله الذي يعرف كيف يكسب عطف والده ويرضيه. تعلمت أن أطيعه ولكن الود بقي بيننا مفقودًا.

كنت غارقًا في عزلتي وصمتي، وقد تحولت وحدتي إلى ملجأ أخير ليأسي وحيرتي. لم أكن قادرًا على الابتعاد، فالهزيمة تحيط بي من كل جانب. كان مطلبي الوحيد في تلك اللحظة أن يصمد جسدي المرهق فلا يخونني فأسقط مغشيًّا. سرت صوب السيارة وشددت بكل ما تبقى لي من عزيمة على مقبض الباب، وأرخيت جسمي على المقعد مفكرًا بما يمكنني أن أفعل.

لم أكن أعرف ما الذي يمكنني أن أفعله، ليس جسدي الهزيل المرهق هو الذي خانني، بل الأفكار التي عادت تطرق رأسي: هل أعود إلى القصر لأجمع الوزراء وآمرهم بالصمود والقتال؟ أم أتوجه إلى المسجد الكبير لأحث الناس وأحرضهم على العدّو؟ هل أمضي على قدميّ إلى معسكر القائد الفرنسي لأوقع وثيقة استسلام؟

أيقظني من أفكاري أخي زيد الذي تقدم صوبي واقترح أن نعود إلى منزله بعيدًا عن المدينة، فوافقت بإيماءة من رأسي. كانت القذائف تسقط حول موكبي والطائرات تحوم فوق رأسي، بينما أنظر إلى الأفق لأرى مملكتي تتهاوى أمام ناظري.

٢

أفسح الرجال الذين سبقونا إلى منزل زيد الطريق لمروري. كانت أنظارهم شاخصة إليَّ حين مررت بينهم وصعدت الدرجات الثلاث التي تفضي إلى الداخل. اجتمعت مع عدد قليل من أعواني، أخي زيد والشريف ناصر وجعفر العسكري، وراسم سرادست وعلي جودة. كنت أريد أن أعرف حقيقة الوضع العسكري الذي نحن فيه، وكانت الآراء متفقة على أن قواتنا قد انهارت وتبعثرت ولم يبق أي أمل للمقاومة داخل المدينة.

خرجت إلى البهو الذي امتلأ ببضع عشرات من الذين قدموا لتوّهم من دمشق، كانت همهماتهم حين جلست في صدر البهو تتعالى. كل منهم يروي خبرًا سمعه أو مشهدًا رآه. مئات القتلى والجرحى في أرض المعركة ولا من ينقلهم إلى المدينة. الجنود المتراجعون تركوا الآليات والسلاح في الميدان والذين احتفظوا ببنادقهم تعرضوا لنهب الفلاحين والبدو.

انخفضت أصوات الرجال الذين استنفدوا أخبارهم. ساد صمت فيما الأنظار تتجه صوبي، ينتظرون سماع كلماتي وما استقرّ عليه رأيي.

ما أصعب أن تكون ملكًا ليس فقط لأن الهزيمة تصبح نصيبك وحـدك، بل لأن عليك أن تحافظ على رباطة الجأش وتتخذ القرارات وتصدر الأوامر. كل واحد يستطيع أن يتدبر أمر مصيره: القتلى يستشهدون، والجنود يفرون وقادة الأحزاب يتوارون قبل حلول ظلام هذا النهار. أما أنا فعليّ أن أتلقى النتائج وحدي، وعليّ مثل ملك أن أستعيد رشدي وأضبط كلماتي وأكتم عواطفي، أن أمسك بزمام الفوضى وألجم الانهيار وأن أختار القرار الذي ينصاع له الجميع.

استقرّ رأيي على الانسحاب خارج المدينة، حتى لا أكون مع حكومتي عرضة للاعتقال. لن أبتعد سوى عدة كيلومترات إلى الكسوة، حيث يكون بمقدوري أن أتابع الاتصالات مع الفرنسيين والإنجليز على حدّ سواء. لا، لا يمكنني أن أبقى في قصري الذي سيحيط به الجنود الفرنسيون هذا المساء أو صباح الغد. لا بد أن أغادر، أن أتراجع قليلًا، حتى تنجلي الأمور خلال ساعات أو يوم أو يومين.

أعاد اتخاذي قراري الدم إلى عروقي. كان الصمت لا يزال مخيمًا في القاعة حين أخذت بتوجيه التعليمات: نوري السعيد وإحسان الجابري سيبقيان في دمشق لمتابعة الاتصالات مع الفرنسيين، أما أعضاء الحكومة فيغادرون إلى الكسوة حيث نلتقي هناك. كانت وسائل الاتصال متعذرة مع دمشق لأن كل الخطوط قطعت خلال الشغب الذي وقع قبل ثلاثة أيام. طلبت إلى الدكتور قدري الواقف قبالتي أن يسرع إلى دمشق ليبلغ الوزراء قرار الانسحاب إلى الكسوة، فتأهب لتوّه وغادر المنزل.

أثار قراري همهمات وتعليقات. الذين اعترضوا أثاروا الشكوك في نفسي، فالانسحاب قد يصبح خروجًا أخيرًا من دمشق. ولكن الذين استحسنوا القرار فكروا أن انسحابًا مؤقتًا سيحمي الحكومة ويتيح مجال تنظيم المقاومة. كنت من جهتي أفكر بالإنجليز الذين سحبوا آخر ممثل لهم في دمشق قبل يومين. لعلهم كانوا على علم مسبق بما سيجري! وتساءلت في سرّي: «ما الموقف الذي سيتخذونه حين يعلمون بما حدث؟». طلبت إلى الأمير عادل أرسلان أن يتأهب للسفر إلى حيفا في أول قطار للاتصال بالقيادة الإنجليزية والوقوف على رأيها. وحين همّ بالخروج دخل نسيب البكري الذي أثار حضوره دهشتي التي أخفيتها. توجّه صوبي وقبّل يدي قبل أن يأخذ مجلسًا بين الحضور ويستمع إلى التعليقات صامتًا.

سنوات كثيرة مرّت على لقائي الأول بنسيب جعلته أقرب الشاميين إلى قلبي وعقلي. كان صديقًا بين القلة التي أحسبها حلقة أصدقائي، الضيقة. قبل أن أكون ملكًا وقبل أن أصبح قائدًا لجيش الشمال كان الصديق الذي تعلمت منه الكثير. أما هو فكان يحسب حساب المستقبل. لقد أدرك، حين كانت الثورة لا تزال فكرة والتحضيرات لإعلانها تجري سرًّا أنني سأكون الشخص الذي سيناط به أمرها. اقترب مني ولازمني وكان معي منذ اللحظات الأولى. مرّت سنوات منذ ذلك الوقت وتبدلت الأمور. باعدت بيننا السياسة والمواقف، لكن طموح نسيب لم ينقص أو يتبدّل. كنت أنظر إليه جالسًا أمامي وتنبهت إلى أن كل واحد منّا بعد مضيّ السنوات صار يشبه ما ينبغي أن يكون عليه، هو الذي اكتسب ملامح الوجيه الدمشقي، وأنا الذي أشبه شيخ قبيلة على أهبة الرحيل.

كان منزل آل البكري قد استضافني في زيارتي الأولى لدمشق، يوم كلفني والدي بأول مهمة سرية لي في الثورة قبل انطلاقها. كان ذلك منذ خمس سنوات. أما مهمتي فقد كانت الاتصال بالضباط العرب في الجيش العثماني لأقف على استعدادهم لإعلان الثورة. كل ذلك تحت غطاء التظاهر بالولاء للأتراك، قبل أن أتابع سفري إلى إستامبول لمقابلة السلطان والصدر الأعظم موفدًا من والدي، ناقلًا شكواه من الوالي في المدينة الذي يحيك المؤامرات ضده.

توطدت آنذاك صداقتي بنسيب وصلتي بدمشق التي أخذت بسحرها وحماستها. كان الشباب العربي من المدن والقصبات البعيدة يأتون إليها وقد جعلوها قبلتهم فبدت كأنها تستعد لدور كبير، فانخرطت في أجوائهم ونقاشاتهم التي لا تنتهي. كانت المدينة في عزّ زهوها واعتزازها بعروبتها الفتية مثل ساحتها التي تحيط بها الفنادق والسرايا ومحطة الحجاز. وحسبت أن الثورة لا بد أن تجعل من دمشق عاصمة المملكة التي نعد أنفسنا بها.

كنت أفكر بالموقع الوسط الذي يجعل دمشق على مسافة من مكة التي ولدت ونشأت فيها، وإستامبول التي قضيت فيها طرفًا من صباي وشبابي. حين كنا لا نزال في إستامبول منفيين في ضيافة السلطان، كان والدي يصرّ على التزامنا أنا وإخوتي، بتقاليدنا العربية في المأكل والملبس والكلام، وكانت العروبة قد سرت في عروقي حين أرسلني والدي وكنت طفلًا رضيعًا، لأنشأ في البادية تبعًا لعادات أشراف مكة. والعروبة حسب والدي هي تقاليد ونمط حياة وطباع قبل أن تكون أفكارًا. لذا كان يطلب من معلمنا صفوت العوا، الذي عيّنته مدير خزينتي بعد أن صرت ملكًا، أن يقسو علينا

في الضرب حتى نتعلم العربية، وحين غادرنا إستامبول عائدين إلى مكة ألزمنا خلع بدلاتنا حتى لا نثير سخرية أهلها، فلبسنا الكوفية والعقال، ولم أخلعها منذ ذلك الوقت إلا مرة خلال زيارتي الأخيرة إلى أوروبا، ومرة قبل ثلاثة أيام حين ارتديت البزة العسكرية.

تعرفت من خلال نسيب إبان إقامتي القصيرة في دمشق إلى عروبة أخرى، لا تأبه كثيرًا لتقاليد أهل الحجاز وعادات البادية ولكنها تنهض على مبادئ وخرائط وشعارات. في منزل آل البكري تعرفت إلى جملة من الشباب العربي المملوء حماسة. في إحدى الليالي أخرجوا علم الدولة التي أقسموا على قيامها، علم رباعي الألوان يرمز إلى رايات دول العرب المتعاقبة في التاريخ. وفردوا أمامي خريطة الدولة بحدودها الممتدة حتى جبال طوروس. دخلت في جمعيتهم السرية «العربية الفتاة» وأقسمت يمين الولاء.

عدت إلى دمشق بعد زيارتي إلى إستامبول أكثر تصميمًا على متابعة مهمتي السرية. التقيت بكبار الضباط العرب الذين أظهروا الاستعداد لإعلان الثورة انطلاقًا من دمشق. وفي إحدى الليالي الباردة من الشتاء سألت ياسين الهاشمي، أكبر الضباط العرب في الجيش العثماني، ما الذي تطلبونه، فأجابني: «لا نطلب شيئًا سوى أن يحزم الحسين أمره لقيادة الثورة وهم يتكفلون بعدها بكل شيء».

بسطت الوقائع لوالدي بعد أن رجعت إلى مكة، فيما هو ينظر إلى وجهي بشيء من الدهشة. وقد أدرك التغير الذي طرأ على أفكاري. كانت شكوكه هي التي دفعته إلى إرسالي في المهمة التي أوكلها إليَّ؛ لأنني كنت أقل اقتناعًا من إخوتي بالثورة على الأتراك. لم يكن

يريد امتحاني بقدر ما كان يريد امتحان القرار الذي أضمره في نفسه. كان ينتظر أن أقول له إن الضباط العرب لا يصلحون للأمر الخطير الذي أزمع القيام به، فساءه أن أخبره بأن دمشق مهيأة للثورة ولا يحتاج رجالها إلى شيء. وحين طلبت إليه أن يوفدني مرة أخرى إلى دمشق لإعلان الثورة رفض طلبي وأبدى حذره من آرائي، كما أظهر ريبته من صدق السوريين الذين يكثرون من الوعود بحسب ما قاله لي.

أضاع الفرصة التي كانت مهيأة آنذاك. وما أكثر ما أضعنا من الفرص وبقي يؤجل ويماطل حتى كشف جمال باشا أمر التجمعات السرية، فاعتقل شبابها واتهمهم بالخيانة وساقهم إلى المشانق. فقضى الخليل والجزائري قبل أن يريا الدولة وعلمها، وفرّ من كتبت له النجاة، وأبعد الضباط العرب إلى الجبهات البعيدة.

مكثت في مكة منتظرًا، فيما والدي منشغل بمراسلاته مع مكماهون في القاهرة، التي أخفى خبرها ومضمونها عن أولاده. وبعد مرور ستة أشهر طلب إليَّ أن أتهيأ للسفر إلى دمشق مجددًا. استغربت طلبه وسألته لما لم يفعل حين كان الأمل بقيام الثورة ممكنًا، ويرسلني الآن وقد أصبح ذهابي إلى الشام مجازفة غير مأمونة العواقب؟ غضب من استفساري، وأبدى سخريته من ترددي، واتهمني بالخوف، وهددني بأن يوفد آخر بديلًا عني. وحين رضخت للأمر حمّلني خطابًا إلى جمال باشا يضمنه مطالبه.

كان خطابه إلى جمال باشا قاسيًا. طلب الاعتراف بسلطته على الحرمين والإفراج عن المعتقلين في سوريا. وكان جواب الباشا

لا يقل قسوة وجفاء، أرسل إلى والدي يهدده ويطلب إليه أن لا يتدخل فيما لا يعنيه ويعلمه بأنني صرت رهينة لديه. فما كان من والدي الذي لا يقل عنادًا، إلا أن أجابه: «حين أرسلت ولدي فيصل لم أكن أتوقع أن أراه ثانية».

آلمني جوابه، ليس لأني خشيت الموت، وإنما لاختياري كي يختبر نوايا الأتراك. كأنني أهون عليه من بين سائر إخوتي. صرت رهينة لدى الباشا يصطحبني في زياراته لخطوط الجبهة ليظهر للجميع بأن شريف مكة يؤازره في حربه وسياسته. وكان عليّ من جهتي أن أصطنع الولاء. أرافقه نهارًا وألتقي بالشباب العربي خفية في الليل في مزرعة آل البكري في القابون.

أذكر أنني في الأيام الأخيرة من إقامتي في دمشق، أولمت له وقد دعوت كبار العلماء والسادة والوجهاء. جاء مزهوًّا بنفسه وجلس وسط القوم يتحدث كأنه الخليفة. اقتنصت الفرصة لأفاتحه بأمر الذين حكم عليهم بالإعدام وتوسلته أن يعفو عنهم. هاج وانتفض وأفهمني أنه غير راضٍ عن طلبي. وقال لي إنه لو علم بأني سأفاتحه بالأمر لما لبّى دعوتي.

لم يبق سوى أن أتدبر أمر الخروج من أسره. أقنعته بأنني ذاهب إلى الحجاز للعودة مع المتطوعين الذين سيرسلهم والدي إلى جبهة القتال. وقبل مغادرتي أودعت نسيب وإخوته كلمة السرّ، التي تعني أن الثورة قد أعلنت، ليلتحق بي في مكة حين يتبلّغها.

كان الصمت الثقيل يخيم في أرجاء القاعة حين أفقت من خواطري. نظرت إلى نسيب البكري الذي علت وجهه ملامح

القلق. قلت: ما وراءك يا نسيب؟ اعتدل في جلسته محاولًا أن يبعد علامات الارتباك التي ساورته، وقال: طالما أن جلالتكم ستغادرون دمشق، فهل تأمرون بتعييني لإدارة شئون المدينة خلال فترة غيابكم؟

ساد الصمت مجددًا في القاعة الواسعة. بينما كنت أسرح في خواطري متخيلًا نسيبًا الشاب المملوء حماسة. تخيلته تائهًا في الصحراء يكاد يهلك من الظمأ، وتخيلته ملكًا على سوريا التي يطمح أن يجلس على عرشها.

لا أعترض على طلبه، كما لو أنه يطلب مني خدمة لا أستطيع أن أردها عن صديق. ولم أتنبه لخطورة الأمر إلا حين ارتفع صوت راسم سرادست: هذا معناه أن الحكومة قد حلت نفسها، بالرغم من كونها لا تزال قائمة! ووافقه أغلب الحضور، فطلبت من نسيب أن يتريث حتى تنجلي الأمور.

٣

عاودني إحساسي بالإرهاق والمرض، وأنا لا أزال في بهو منزل أخي زيد أنتظر خبر مغادرة القطار الذي ينقل الوزراء إلى الكسوة التي اخترتها مقرًّا مؤقتًا للحكومة. كان وقت الانتظار طويلًا، فالأخبار المقلقة تأتي مع كل قادم. كانت الشائعات تتفشى في المدينة مثل وباء، بما في ذلك شائعة إصابتي في أرض المعركة. جاء من يخبر أن تظاهرة يقودها الشيخ تاج الدين الحسيني خرجت تندّد بالفرنسيين، سرعان ما تفرقت بعد أن بلغتها أخبار الهزيمة وأن المدينة قد أقفرت بعد أن انسحب أهلها إلى أحيائهم الداخلية يترقبون دخول الفرنسيين. واشتد قلقي حين أخبرت بأن الوزراء وقادة الأحزاب والضباط قد تجمعوا في محطة الحجاز بانتظار انطلاق القطار الذي سينقلهم إلى الكسوة. وقد سرت الشائعات بأن الفرنسيين سيقصفون القطار إثر تحركه ليقضوا على قادة سوريا. وقد حلّقت بالفعل طائرة فوق المحطة فدب الذعر في نفوس المجتمعين فوق رصيفها. ساروتني المخاوف ولم يهدأ جزعي إلا بعد أن بلّغت بأن القطار قد غادر دمشق وهو في طريقه إلى الكسوة التي سيبلغها بعد قليل.

كنت أتهيأ للخروج من المنزل محاطًا بالمودّعين الذين قرّر بعضهم البقاء في دمشق منتظرين، وبعضهم قرّر اللحاق بي في القطار التالي الذي سينطلق بعيد الظهر، حين لمحت فارسًا يتقدم باتجاهنا، تمهلت بانتظار وصوله، وحين ترجل سأله زيد عن الجهة التي جاء منها. أجاب بأنه آخر المنسحبين من ميسلون التي لم يبق فيها أحد. عرفته حين أخذ بالكلام، إنه الملازم العمري أحد الضباط الذين فروا من الجيش التركي والتحق بالثورة حين كنا لا نزال في العقبة.

تقدّمت من السيارة التي ستقلني إلى الكسوة. فتح تحسين قدري الباب لأجلس في المقعد الأمامي. بينما طلب زيد من الضابط العمري المرهق أن يتبعني بعد أن أمر له بحصان غير الذي كان يمتطيه. شعرت بشيء من الاطمئنان لوقع الحوافر خلف سيارتي. كان الحر ثقيلًا والطريق مقفرًا، فطلبت من السائق أن يخفف من سرعته حتى لا نرهق الفارس الذي يعدو خلفنا. كنت أتأمل البيوت الطينية المتناثرة وأشجار الصبّار التي تحف بالطريق قبل أن يشغلني الفراغ المستسلم لحرارة الشمس، حين برز، قبل بلوغنا قرية داريا، خيّال يرفع بندقيته وسط الطريق ويصوبها نحو السيارة التي صارت على مقربة منه. لم تمض سوى لحظة واحدة حتى أدركت أني أتعرض لمحاولة سلب! انتابني شعور عابر بالخوف، قبل أن تغمرني المرارة. ملك يسلب في أرض مملكته، ويقتل ببندقية بدويّ، لعلها واحدة من البنادق التي وزعتها بسخاء على رجال العشائر ليقاتلوا بها الأتراك. آلاف البنادق كانت تأتي محملة بالسفن أوزعها فور وصولها على رؤساء العشائر لكسب ولائها. البندقية حياة البدوي، أقرب إليه من ابنه وأخيه، لا يفارقها كأنها جزء من كيانه.

لم أفكر بالموت، ولكنني فكرت بسخرية أن قضائي في هذه الأرض القاحلة لن يكون سوى قدر أعمى أصاب ملكًا تائهًا في مملكته.

خواطر كثيرة مرت في ذهني. تساءلت: ما الذي ستنقله صحف العالم وتخبره؟ ماذا سيقول والدي وإخوتي حين يصلهم الخبر؟ كنت في ذروة انفعالاتي حين توقفت السيارة وسط الطريق. لمحت الضابط العربي وقد تقدم على صهوة حصانه بسرعة السهم، ولا أدري كيف، وفي لمح البصر، وضع فوهة بندقيته في صدر الخيّال وأمره بالتراجع، فانكفأ خافضًا سلاحه وتوارى مثلما ظهر.

وصلت إلى الكسوة، كان رصيف محطتها يضج بأصوات بضع عشرات من الرجال الذين وصلوا على متن القطار قبل ساعة من الزمن، كان الارتباك سيد المحطة وقد اختلط الضباط بالوزراء والجنود، وكان ثمة فلاحون ونساء وأطفال جاءوا تدفعهم الحشرية يستطلعون ما يجري. سمعت هتافات الترحيب حين لمحوا قدوم سيارتي، واحتشدوا حولي حين ترجلت وسرت وسطهم مفسحين لي الطريق. حييت رجولتهم ووجهت لهم عبارات التشجيع التي لم تبدد القلق الذي تشي به نظراتهم المصوبة إليَّ. توجهت صوب المقصورة التي أعدت لي، كنت أشد ما أحتاج إلى الوحدة والراحة. أغمضت عينيّ بعد أن أرخيت جسدي المتعب فوق المقعد. واستسلمت للخدر الذي دب في أوصالي، بينما الصور تتلاحق في خاطري كأنها مشاهد التقطها مصور: معسكرات وخيم، قطارات وخيول، مدن وصحاري، بنادق وطائرات، مؤتمرات ومظاهرات

ودسائس تستعصي على آلات التصوير. وتجمدت مخيلتي عند مشهد الخيّال المنتصب وسط الطريق مصوبًا بندقيته نحوي.

فتحت عينيّ أريد طرد الصور من مخيلتي. نظرت عبر النافذة، ثمة أشجار قليلة تقاوم حرارة الشمس. شغلت نفسي بمنظر البادية الممتدة صوب الجنوب. صحراء منتشرة حتى مكة في الحجاز أدخلت السكينة إلى قلبي. إن أسعد لحظة في حياتي هي عندما أمتطي ناقتي وأسير في الصحراء تحت ضوء القمر. الصحراء أليفتي، عايشتها في طفولتي وصباي بين عرب عتيبة حين تعلمت رمي السهام وركوب الخيل ولعبة الحرب. أراد والدي أن يدرب أبناءه على كل ما يجدر بشريف أن يتعلمه ويلزمه لتسلم الإمارة. وحين انتقلنا إلى إستامبول لم ييأس من الفرصة التي قد تأتي في يوم من الأيام، بالرغم من طول المدة التي عشناها في كنف السلطان. غادرت مكة وكان لي من العمر ثماني سنوات، وحين رجعت إلى الحجاز كنت قد تجاوزت الخامسة والعشرين. كان يمكن أن ننسى العربية لولا إصرار والدي على تعلمها، وكان يمكن أن أحظى بمنصب رفيع في الدولة أو القصر لولا كرهي لإستامبول وعناد والدي الذي لم ينس دارته في مكة. أمضيت في إستامبول أوقاتي ضجرًا كئيبًا، ومع ذلك تعلمنا الطاعة للدولة والسلطان ولم أحسب أن يومًا سيأتي ننقلب فيه على خليفة المسلمين.

لست أدري كيف بدأ هذا الأمر؟! حين رجعت إلى مكة بعد الانقلاب الدستوري، وعزل السلطان عبد الحميد الذي لم نعرف طيلة إقامتنا في عاصمة الدولة سلطانًا غيره شعر والدي أنه يستعيد حقه في الإمارة على الحرمين. وقد أخفى في نفسه مرارة أن يقلب

السلطان، وأخفى خشيته من الضباط وحذره منهم. أراد أن يثبت أنه الأول بين سادة الجزيرة، فاندفع لقتال الإدريسي في عسير حين طلبت منه الدولة أن يخرج لتأديبه، فوجد في الأمر سانحة ليثبت ولاءه ويؤكد جدارته، وجعلني على رأس الجيش الذي شكله لتأدية المهمة، فكانت تلك أولى تجاربي في القتال.

تسارعت الأمور والوقائع إثر ذلك. حين ذهبت مع أخي عبد الله إلى إستامبول ممثلين للحجاز في مجلس المبعوثان. كان المندوبون يأتون إلينا ليتعرفوا إلى ابني سيد الحرمين والحجاز الذي صار اسمه معروفًا وصيته مرموقًا وقد ذاعت شهرته في أقاليم الدولة. بل أصبح أبرز شخصية عربية في السلطنة على الإطلاق، والثاني من حيث المقام الروحي بعد الخليفة نفسه. لقد عرف عبد الله الذي انتخب نائبًا لرئيس المجلس أن يستغل صيت والده، وأن يستخدم طلاوته ليعقد الصداقات مع المندوبين في المجلس والضباط العرب في الجيش العثماني. أما أنا، ولا بد من أن أقر بالأمر، لم يكن شأن الجمعيات العربية النشطة في إستامبول يعنيني، ولم أكن لأهتم بأن أعقد اللقاءات والصداقات مع أصحاب النفوذ من العرب والأتراك. لم أكن أملك مواهب عبد الله ودهاءه، ولعل نشاطه قد أقعدني عن بذل أي نشاط، وهو الذي لم يفته أن يستفيد من عبورنا لمصر في الطريق من جدة إلى إستامبول، ليعقد صداقات سرية مع خديوي مصر الذي كان يستضيفه في قصره، ومع القيادة الإنجليزية التي كانت تترقب الدور الذي يمكن للحسين أن يقوم بأعبائه في المستقبل.

أدرك والدي المكانة التي يحتلها، والتي عرف كيف يصنعها وسط ظروف كانت تدفعه إلى مقدمة مسرح الأحداث. لكن المكانة

التي حظي بها أثارت حفيظة رجال العهد الجديد في إستامبول الذين ساورتهم الشكوك حول ولائه، وخافوا أن تؤهله شهرته التي اكتسبها في الأقاليم العربية من ترؤس حركة آخذة بالاتساع لم يعد أمرها سرًّا. وحين اندلعت الحرب ازدادت المخاوف واختلطت الأوراق وصار كل شيء ممكنًا.

كان والدي صادقًا في نصيحته لرجال الدولة من العسكريين حين حذرهم من دخول الحرب، لكنهم لم يستمعوا إلى نصيحته وركبوا أمزجتهم الصاخبة وطموحاتهم التي لا حدود لها، بل دعوه إلى المشاركة في الحرب وإرسال المتطوعين إلى جبهة القتال. ماطل، وسوّف، وبدأ بإرسال شروطه حتى ضاق رجال الحكومة وقادة حربها به، فأعدوا مؤامرات لإزاحته لم تنطل على دهائه وحذره. فأرسلني يشكو أمره للسلطان في الوقت الذي فتح خط مراسلاته مع الإنجليز في القاهرة.

كان الأمر في بدايته مزيجًا من دهاء أخي عبد الله وسخريته، وعناد والدي وحنكته. لم أكن متحمسًا لتلك المراسلات المتبادلة بين والدي ومكماهون، والتي بقيت تفاصيلها سرًّا أجهله. فقد كنت بنظره عثمانيًّامتحمسًا للتحالف مع الأتراك. والحق أنني كنت كذلك ولم أكن مقتنعًا بالانقلاب على الدولة حتى كانت زيارتي الأولى إلى دمشق.

لعله أدرك أن دخول الأتراك الحرب سينتهي بهزيمتهم المؤكدة، وأن الحرب مناسبة لظهور دول واختفاء أخرى، وفي جميع الأحوال فإن اندلاع الحرب كان فرصته المؤاتية ليتخلص من ضغوط

إستامبول التي تطالبه بمدّ خطّ سكة الحديد حتى مكة. كان يخشى هذه السكة التي ستنقل، في حال امتدادها، الجيش التركي إلى عقر داره. عدا عن كون القطارات إذا ما وصلت إلى مكة، ستقضي على موارده وموارد العشائر في موسم الحج. والحق أن اندلاع الحرب قدم له خدمة مجانية حين أهمل الأتراك أمر خط الحديد هذا، أما هو فقد أصرّ على الإفادة من الفرصة حتى آخرها.

قطعت المراسلات التي يسميها مقررات النهضة شوطًا بعيدًا. والدي يطلب استقلال العرب بعد نهاية الحرب، والإنجليز يعدونه بتلبية شروطه إذا أعلن الثورة وانشقّ عن الأتـراك. لقد ناقش التفاصيل على الورق، وظن أنه حظي بالوعود التي يريدها ومع ذلك، لم يكن على عجلة من أمره، فالأتراك مثل الإنجليز يخطبون ودّه ويعدونه بالذهب الذي يكدس بعضه وينفق بعضه الآخر. كان يدرك الموقع الذي بات يحتله بعد أن أضحى الرمز الذي تتطلع إليه العرب والسيد الذي يرغبون بزعامته. إنه الملك غير المتوج للدولة التي وعده الإنجليز بقيامها والذين لم يقابل في حياته من رجالهم سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. هكذا قرر في نهاية المطاف إعلان الثورة التي صارت تبعاتها خاصتي ونصيبي.

لم تكن الثورة في بدايتها أكثر من حدث منزلي، لا يعرف بأمرها سوى أبنائه وعدد من أولاد عمومته. كان الإعلان عن الثورة عبارة عن طلقة بندقية أطلقها والدي من شرفة داره في مكة. فكانت بمثابة الإشارة التي سمعها رجاله المتجمعون تحت شرفته، فانطلقوا للاستيلاء على المواقع التركية. ردّ الأتراك على الطلقات بالقنابل التي أصاب بعضها حجرته قبل أن تستسلم حاميتهم في مكة، كما

استسلمت تباعًا حاميتا جدة والطائف، إلا في المدينة حيث صمدوا حتى نهاية الحرب. لم تخف قنابل الأتراك الشريف حسين، فقد كانت شجاعته فضيلته الكبرى ولا أدري إذا كان عناده يعادل شجاعته أو يفوقها. لكن الفضائل مهما كانت نبيلة لم تكن كافية للفوز في الحرب. بعد ثلاثة أشهر من إعلان الثورة وجدنا أنفسنا عالقين ننتظر أن تسحقنا قنابل الأتراك. لم تكن البنادق التي يحملها المقاتلون من البدو تكفي لصدها. كاد صبر أبي ينفد، فأمطر القيادة الإنجليزية برسائل يطلب فيها السلاح، وكان علينا أن نلبث في مواقعنا منتظرين الإمدادات أو الموت.

٤

عادت الجلبة مجددًا إلى رصيف المحطة في الكسوة، عندما وصل قطار آخر من دمشق يقل العشرات من الذين آثروا الهروب خوفًا من انتقام الفرنسيين. اختلط الذين وصلوا لتوهم بالذين حطوا رحالهم فوق الرصيف قبل ساعات قليلة. وعاد القلق يتلبد في الأجواء، فالكل يستفسر عن آخر الأخبار، عن عدد القتلى والجرحى، عن الذين تخلفوا في دمشق والذين انقطعت أخبارهم منذ الصباح. بقيت في مقصورتي غير راغب بلقاء أحد أو توديع مسافر، أراقب من نافذتي اضطراب حركة الرجال وضوضاءهم. ولفتت انتباهي أباريق الماء التي يتناقلها الرجال بين أيديهم. شعرت بظمأ بسبب ماتناولته من سجائر وقهوة منذ الصباح.

لمحت فوق رصيف المحطة أشخاصًا كثيرين انضموا إليَّ في أوقات مختلفة، حجازيين لازموا معسكري منذ أيام الثورة الأولى وخاضوا جميع معاركها، يمنيين انضموا إلى جيش الشمال بعد الاستيلاء على الوجه، ضباطًا عراقيين قادوا الجنود في أغلب المواقع، وشاميين من عسكريين ومدنيين. لمحت الدكتور الشهبندر الذي لم يتوقف عن الكلام في جدال مع يوسف الحكيم،

والشيخ القصاب بعمامته يتنقل في حركة عصبية بين الرجال. كان بين المحتشدين أسعد داغر اللبناني الذي وفد إلى دمشق من مصر، وعزة دروزة ابن نابلس وعضو العربية الفتاة. عشرات الرجال جاءوا من بلدان مختلفة إلى دمشق عاصمة الدولة التي حلموا بإقامتها، وها هم تجمعهم الهزيمة في هذه اللحظة في بلدة نائية لا يعرفون ماذا يفعلون وإلى أين يتجهون. شعرت بالمرارة في داخلي، إنها مسئوليتي وهزيمتي، لن أتنكر لهذه ولن أتنصل من تلك.

لم تكن الكسوة قادرة على استقبال هذا العدد من الرجال الذين تجمعوا فوق رصيف محطتها أمام دهشة أهلها وفلاحيها الذين لم يبخلوا بالخبز الذي حملوه من بيوتهم مع ما تيسر لهم من طعام ليقدموه لضيوفهم الذين حلوا بينهم بغتة. أطلق القطار الذي وصل قبل دقائق صفّارته معلنًا استئناف سيره صوب درعا وحيفا، فكان وداع سريع بين الذين سيغادرون والذين قرروا البقاء في الكسوة.

تحرك القطار بطيئًا تجره ضوضاء عجلاته التي ازدادت دوراتها عصبية. أحسست بصريرها النزق يخترق صدري وقد إزداد لهاثه. كانت عيناي تراقبان ابتعاد القطار الذي تلاشى في الأفق بعد دقائق قليلة. أدركت لحظة اختفائه بأن عهدًا من الثورة قد انطوى، كانت شمس هذا النهار تستعد للمغيب فيما الظلام ينصب خيمته الكبيرة فوق المحطة. أطبقت عيني واستسلمت لأفكاري.

كان موسم الحج في الخريف الذي أعقب إعلان الثورة، قبل أربع سنوات، مناسبة لاجتماع المئات الذين قدموا من أقاليم بعيدة، ليعلنوا ولاءهم ويبايعوا الحسين قائدًا للثورة وملكًا على العرب.

زينوا له الأمر الذي يضمره في قرارة نفسه. تباروا في الخطب وتقديم الولاء. وقف الشيخ رشيد رضا خطيبًا بعد انقضاء مراسم الحج بين يدي الحسين وقال: إن هذا العمل الذي قام به الزعيم العظيم قد أنقذ الحرمين الشريفين وما حولهما من الخطر الجسيم ووضع أقوى أساس لحفظ الاستقلال الإسلامي بإنشاء دولة جديدة. فألهب كلامه حماسة الحضور. لكن الشيخ رضا رجع إلى القاهرة، ولم يطق البقاء في الحجاز. وما لبث أن تباعدت سياسته عن سياسة الحسين. وحضر قادة مثل فوزي العظم الذي كان ينشط في مصر بين السوريين أقرانه، وجاء الشيخ كامل القصاب بعد أن اعتقل في عاليه وأخلى سبيله، فرافق المفتي بدر الدين الحسيني ليتمكن من الخروج من سوريا. كان مشهد الآلاف في مكة يبعث على الفخر والأمل، ويبعث في نفس والدي أحلامه في الملك. لكن ذلك لم يكن إلا موسمًا عابرًا، لأن والدي كان يريد تأييد الرجال ومبايعتهم لا شخوصهم. فلم يكن يطيق أن يثقلوا رأسه بآرائهم، وما كانوا من جهتهم يطيقون عناده وتفرده في اتخاذ القرارات، فعادوا إلى القاهرة منتظرين نهاية الحرب. أما والدي فكان عليه أن يستمر في مطاردة الأشباح التي يعتقد أنها تقاسمه ثورته.

لكن الثورة أقنعت الكثيرين من شباب العرب الذين وجدوا في الانضمام إليها خلاصًا لهم من حياة النفي، والعديد من الضباط والجنود الذين تحرروا من أسر الإنجليز بالتحاقهم بها. وقد انضموا إلى الجيوش الثلاثة التي أقودها مع أخويّ علي وعبد الله. كانت أول الأمور التي قمت بها بعد إعلان الثورة إرسال كلمة السرّ إلى نسيب البكري وإخوته كي يغادروا دمشق ويلتحقوا بي في

الحجاز. انتظرت وصولهم بضعة أسابيع دون أن أتلقى منهم خبرًا أو إشارة فانتابني الخوف على مصيرهم، وبعد مضي ثلاثة أشهر من تبلغهم إشارتي وصلوا منهكين. وقد أخبرني نسيب أنه غادر دمشق مع إخوته والرجال الذين تركتهم في مزرعة القابون إثر تبلغه كلمة السرّ واتجهوا صوب البادية، لكنهم تاهوا وضلوا الطريق بعد أن سار بهم الدليل صوب العراق بدل أن يتجه صوب الحجاز، ولم ينتبهوا إلا بعد أن أصبحوا على مقربة من كربلاء، فعادوا أدراجهم يقطعون الصحراء ولم يبق معهم ماء أو طعام. وصلوا إلى الجوف حيث استقبلهم الأمير نوّاف الشعلان الذي استبقاهم شهرًا في ضيافته قبل أن يتابعوا طريقهم إلى الحجاز.

كانت لكل واحد من الذين انضموا إلى الثورة قصته ومغامرته. أذكر ليلة وصل فايز الغصين، وكنت لا أزال معسكرًا في ينبع. جلس وسط الرجال الذين جاءوا إلى مضافتي يعرضون قضاياهم وحاجات عشائرهم، وقبيل منتصف الليل سألته عن حاله وعن فراره، فأخذ يخبر حكايته منذ أن حكم عليه المجلس العرفي بالنفي، بتهمة الانتماء إلى جمعية الفتاة. أرسل مخفورًا إلى ديار بكر عن طريق حلب، وهناك بدأ يفكر بالهرب من حراسه بعد أن علم بأن الذين كانوا معه في السجن قد أعدموا. أمضى سبعين يومًا متشردًا بين ديار بكر والناصرية، وحين وصل إلى أول دائرة للشرطة سلم نفسه للضابط الإنجليزي الذي أحسن استقباله بعد أن سمع قصة هروبه ووعد بإرساله إلى البصرة. اجتاز الفرات على ظهر سفينة صغيرة استغرقت رحلتها أسابيع، ووصل إلى البصرة مرهقًا معدمًا، قبل أن تتسنى له مقابلة السير برسي كوكس والمس بيل النحيفة كما

يصفها، والتي أصرّت على سماع قصته التي دامت فصولها شهورًا من التشرد والجوع.

أمضيت الليل مع ضيوفي أستمع إلى فايز الغصين يروي حكايته التي لم يملّ من روايتها. فبعد إقامته في البصرة، بلغه خبر إعلان الثورة، فقرر الانضمام إليها دون تردد. رتب له السير كوكس السفر مع عدد من الضباط الذين كانوا ينتظرون الانضمام إلى الثورة في الحجاز، وبينهم مولود مخلص وعلي جودة وعبد الله الدليمي وهم أعضاء في جمعية العهد السرية التي كان يتزعمها في إستامبول اللواء عزيز علي المصري. توجهت بهم السفينة إلى بومباي في الهند، حيث انتظروا مدة شهر ونصف الشهر قبل أن تقلع بهم صوب الحجاز، وقد انضمّ إليهم هناك عدد من الضباط والجنود العرب الذين كانوا أسرى القوات الإنجليزية.

لم ينه فايز الغصين قصة فراره والتحاقه بالثورة إلّا قبيل الفجر، وحين تذكرنا سوية البخاري والعسلي وسليم الجزائري الذين أعدموا أمضينا لحظات من التأثر. منذ لقائي به عينته أمين سرّي وبقي في رفقتي حتى يومنا هذا.



٥

حلّ المساء فبدا الجمع المحتشد إزاء القطار المتوقف أشبه بمخيم بدويّ. وبدا مشهد المحطة والقطار فريدًا وسط سكون المساء الذي حسبت أنه سيكون بطيئا وكئيبًا. كانت مخاوف الرجال وهواجسهم التي ارتسمت ذعرًا على وجوههم خلال النهار قد تبددت، تدلّ على ذلك الضحكات التي أسمعها بين الحين والآخر تتردد في الظلام الذي لم تستطع المصابيح القليلة أن تقاومه.

شعرت بالضيق في صدري، وعاودتني الهواجس من أن يكون المرض قد أصابني، وزادت في ضيقي النوافذ المغلقة، وانتابني الشعور بأن مصيري معلق في مقصورة ضيقة في بلدة نائية ومنسية. فتحت إحدى النوافذ لأتنسم شيئًا من الهواء الذي دخل حاملًا برودة المساء، فشعرت بشيء من الانتعاش الذي افتقدته طيلة النهار. ووصلت إلى أسماعي أصوات آتية من رصيف المحطة وقد صار المشهد أكثر ألفة. أغراني هواء المساء بالخروج. مشيت على الرصيف فتحلق حولي الرجال وبادلتهم الضحكات والتعليقات. كانوا يتحدثون عن ليل الصحراء وهوائها وعن الكسوة وكرم أهلها. سرت بينهم وقد جهدوا في إبداء مرحهم رغم ملامح الإرهاق التي

ارتسمت على وجوههم، تناولت بندقية أحد الحراس ورحت أجرّب استخدامها. جلست على الأرض وجلس حولي الرجال والبندقية لا تزال بين يديّ. سألت صاحبها، فقال إنها لم تفارقه منذ ثلاث سنوات عندما انضمّ إلينا وكنا لا نزال في الوجه. استدعت عبارته ذكريات الرجال وأثارت في نفسي الحنين إلى أيام كنت أصل فيها الليل بالنهار، أستقبل في مضافتي شيوخ العشائر لأحلّ مشاكلهم وأحكم بينهم وأستمع إلى قصصهم وقصائدهم التي يلقيها شعراء القبائل.

انشغل عدد آخر من الرجال بإعداد الشاي وتحضير العشاء، ولم يكن ثمة ما يقتضي انشغالهم سوى رغبتهم في تمضية الوقت وتناسي الهموم التي تثقل رءوسهم. أخذوا يوزعون فيما بينهم البيض المسلوق وخبز البقسماط. كنت أتأمل حركة الذين يتنقلون فوق الرصيف وقد نسوا ما كانوا عليه قبل انتقالنا إلى الكسوة. جعفر العسكري يلقي بعض التعليمات، فقد اعتاد إصدار الأوامر، ولا بد أن تكون أخبار العراق هي التي تزيد في قلقه في هذه اللحظة. ويوسف الحكيم وزير النافعة يعدّ الشاي دون أن يغادره وقاره، وقد انشغل ساطع الحصري بمعالجة العيدان اليابسة، وحده رياض الصلح الذي يقوم بتوزيع ما تيسر من أكواب الشاي كان يلقي النكات وينشر شيئًا من روحه المرحة، لعلّ فتوته قد أنسته الهموم التي ترخي بثقلها فوق رصيف المحطة. وكانت التعليقات الساخرة من الذين ينتظرون دورهم لشرب فنجان من الشاي تكسر الرتابة وتبثّ السخرية وتستدعي التعليقات الأكثر مرارة. لم تمض سوى برهة على عودتي إلى مقصورتي، حتى سمعت طرقًا خفيفًا على الباب،

دخل تحسين قدري يحمل رسالة من نوري السعيد الذي بقي في دمشق. كانت الرسالة مختصرة: اتفاق مؤقت، والحكومة القديمة باقية، البلد هادئ وأطلب من جلالتكم أن تتقربوا من دمشق.

اعتبرت الرسالة إشارة حسنة ودبّ في نفسي شيء من الحماسة المفاجئة، فعادة ما أنتقل من حال إلى حال، إنها واحدة من خصالي التي لا أملك السيطرة عليها، ولطالما أثار الأمر التعليقات والانتقادات التي تصلني أصداؤها بسبب مزاجي المتقلب الذي تتناقض أحواله بين حين وآخر، فينتقل من السكون إلى الحماسة ومن الحزن واليأس إلى الأمل والتفاؤل.

استجمعت همتي، ولم يتطلب الأمر وقتًا حتى حضر إلى مقصورتي الذين دعوتهم للتشاور، وقد علموا لتوّهم بخبر الرسالة التي وصلت من دمشق وعلامات الاستفهام مرتسمة على وجوههم يريدون معرفة المزيد مما تضمنته. رشفت من الشاي الذي أحضر لي، وأخذت أختار بعناية الكلمات التي سأخاطبهم بها، قلت: وصلتني للتوّ أخبار عن الحالة في دمشق، الاتصالات لم تنقطع والهدوء يسيطر على المدينة.

كنت أنظر إلى وجوهم التي تشي برغبتهم في معرفة المزيد من الأخبار. وقبل أن تخيب كلماتي ظنونهم، قلت بلهجة حاسمة : الأمر المهم في الرسالة أن نوري يطلب إليَّ أن أكون قريبًا من دمشق فلا أبتعد، لذا أفكر بالعودة، ولكنني أريد قبل ذلك أن أستمع إلى آرائكم.

أثارت عباراتي الأخيرة الهمهمات والتعليقات. تحمس السوريون للعودة إلى دمشق كأنهم لا يريدون أن يبتعدوا عن

ديارهم، بينما أبدى العراقيون شكوكًا. كانت أخبار المواجهات في العراق تغريهم بالإسراع في العودة إلى بلدهم. لم أستغرب الانقسام في الآراء، فكلما عرضت أمرًا على أعواني انقسمت الآراء حوله وشعرت بشيء من الندم في داخلي. إنها عادة أخرى من عاداتي التي اكتسبتها في الآونة الأخيرة، فالآراء المتعددة تبلبلني وتحبط عزيمتي، وكان يجدر بي أن أجمعهم وأقول: لقد قررت أن أعود في هذه اللحظة وأمامكم عشر دقائق لتحزموا حقائبكم، أو أقول: لقد أمرت القطار بالانطلاق في غضون ربع ساعة فليستعد من يريد العودة إلى العاصمة. لكنني لم أفعل ما كان ينبغي أن أفعله دائمًا. كنت أميل إلى التشاور والاستماع إلى الآراء حتى أكوّن الرأي الأخير. وغالبًا ما ضعت في متاهة الآراء المتناقضة وضجيج المتحاورين. لا، لم يكن الأمر على هذا النحو دائمًا، في زمن الثورة لم أكن أحتاج إلى التشاور وسماع الآراء، كان الهدف واضحًا وهو التقدم صوب الشمال. لست أنا الذي تغيّر، ولكن كثرة الميول والأحزاب هي التي جعلتني أسعى إلى تقريب الآراء وإقناع من لا يقتنع بوجهة نظري. فضعت في لجّة التيارات والأهواء.

انقسمت الآراء بين مؤيد للاتصال بالفرنسيين والقبول بالأمر الواقع وبين معارض لقبول نتائج المواجهة التي هي، بالنسبة إليهم، ليست إلا بداية حرب طويلة. كان كل طرف يبسط حججه، وكنت أسمع الآراء دون تدخل من جانبي، كأنني أريد أن أعرف حقيقة ما يفكر به كل واحد منهم، لكن النقاش الذي امتد أفتر حماستي، وتاهت أفكاري مجددًا، ولم أعد أسمع شيئًا مما يتجادلون فيه.

قطع جعفر العسكري سيل المناقشات وتوجه نحوي بالكلام:

لا أظن يا جلالة الملك أن الفرنسيين بعد أن رفضوا كل مساعي التفاهم يمكن أن يقبلوا الآن بالمفاوضات. كان كلامه قاطعًا ومؤلمًا، فلم أعلق، ولكن الحصري حاول أن يكون أقلّ تشاؤمًا، فقال محاولًا أن ينهي الجدل، أرى أن ننتظر نتيجة الاتصالات التي يقوم بها نوري والجابري، وسنرى في الغد ما يمكن أن نفعله.

انفض الاجتماع قبيل منتصف الليل وقد ازدادت خواطري تشتتًا، وغرقت في صمتي ووحدتي واستسلمت للأفكار والخواطر التي تركتها تتجاذبني بين اليأس والأمل.

كنت أحاول أن أصنع أملًا جديدًا، أن أستنفر موهبتي في خلق حقيقة من العدم. لطالما امتدحت لقدرتي على ابتداع شيء من لا شيء، وتأليف ما لا يمكن تأليفه، والجمع بين المتناقضات وإقناع من لا يقدر أحد على إقناعه وكسبه. لقد طوعت عتاة الصحراء الذين جاءوا يقبّلون يدي ويقسمون يمين الولاء للقضية، لم تكن القضية أكثر من فكرة بسيطة وعميقة في آن، لقد آمن أولئك الذين أتوا من مشارب مختلفة وأقاليم متباعدة بالعروبة التي شكلت قاسمًا بينهم، واكتشف كل واحد منهم ما يجمعه مع الآخرين. اليمني والحجازي والشامي والعراقي، شيخ القبيلة الذي لم يغادر البادية والعسكري الذي تدرب في إستامبول والمتعلم الذي قضى صباه وشبابه في المدارس والمعاهد. فقد آمن كل واحد بأن الوقت قد حان لبناء دولة عربية واحدة تضم الجميع.

أفكر بهؤلاء الأشخاص الذين كانوا قبل برهة وجيزة مجتمعين في مقصورتي، الذين جاءوا من أماكن وتجارب مختلفة، الدكتور

أحمد قدري الشامي الذي درس الطب في إستامبول. كان واحدًا من بضعة أفراد أسسوا جمعية العربية الفتاة مع رستم حيدر وتوفيق الناطور وعبد الكريم الخليل. أخذوا بفكرة العصبية الجنسية، عقدوا الاجتماعات السرية وصمموا العلم والأناشيد والخرائط وأقسموا الولاء للدولة الموعودة. أما يوسف الحكيم فقد أتى من بيئة أخرى، موظف عثماني خدم في جبل لبنان وولاية بيروت، إنه مثال العثماني المسيحي المتمرس في تقاليد الإدارة والذي وجدنا في خبرته خير معين لينهض معنا في بناء الدولة. لم أشك لحظة بإخلاصه مثل سائر أبناء ملّته الذين بايعوني. أما جعفر العسكري فهو مثل للضباط العراقيين كمولود مخلص وعلي جودة ونوري السعيد. أخبرني جعفر ذات مرة كيف انتقل من قريته على ظهر قارب عبر دجلة لكي يلتحق بالكلية العسكرية في إستامبول. أظهر براعة جعلته يرتقي في الرتب وأرسل إلى برلين ليتدرب في صفوف الجيش الألماني فالتقى هناك أنور باشا ويوسف العظمة وقد برز في المعارك التي خاضها والمهمات التي أسندت إليه. وكانت آخر مهماته حين كان لا يزال ضابطًا عثمانيًّا تلك التي أوكلت إليه ليؤازر السنوسيين في ليبيا. وفي إحدى المعارك أصيب ووقع أسيرًا في أيدي الإنجليز. وقد رسمت الحرب مصيره المقبل كما رسمت مصائر العشرات من أمثاله الذين كتب لهم القدر أن يحاربوا في صفوف الثورة ضد الأتراك وحلفائهم الألمان بعد أن علّموهم فنون القتال. إن أكثر الأمثلة تدليلًا على قدرة الفكرة العربية على اجتذاب الرجال وصياغة خياراتهم هو ساطع الحصري، هذا الحلبي الذي ولد في اليمن ونشأ في إستامبول حتى صار مديرًا الدار المعلمين فيها.

التقيته للمرة الأولى بعد عودتي من مؤتمر الصلح في باريس، وكان وصل إلى دمشق خلال سفري، وقد كلمني بالتركية لأنه كان لا يزال يمرن لغته العربية التي افتقدها خلال إقامته الطويلة في إستامبول. أشخاص مختلفون صهرتهم تجربة واحدة وإنني أؤمن الآن بأن هذه الفكرة لا بدّ أن تحيا. لم تمت العروبة ومهمتي لم تنته.



٦

لست أدري إذا كنت غفوت لساعة أو لساعتين، فقد وجدت نفسي صاحيًا مع إشراقة الشمس. كان ضوء النهار الذي تسلل إلى مقصورتي قد بعث في نفسي أملًا غامضًا، خرجت لأتنسم هواء الصباح قبل اشتداد الحرّ ومشيت حتى صرت خارج المحطة. اخترت ناحية وجلست متكئًا على ذراعي. كانت السماء صافية مثل لوح من البلور فانتقل الصفاء إلى ذهني، وكانت آخر نسمات الصباح تدخل إلى صدري المرهق. كنت أراقب استيقاظ البلدة التي أثار وجودنا كرم أهلها وحشريتهم وربما أثار قلقهم، فقد أتوا هذا الصباح يحملون خبزًا وبيضًا فيما انصرف آخرون إلى حقولهم لا تشغلهم هموم الحرب والهزيمة ودسائس الدول. أخذت أفكاري تنصرف إلى ما سيحمله نهاري الثاني بعد الخروج من دمشق ولم أكن قد خلصت إلى رأي أو قرار.

لمحت يوسف الحكيم يسير مبطئًا عند آخر الرصيف، فأشرت إليه أن يشاركني جلستي. كنت راغبًا في سماع رأيه، ولطالما ظننت أنه يعرف شيئًا عن خطط الفرنسيين ونواياهم. كان يحاول أن يحثني على المفاوضة، فشجعني اعتداله، وعدت إلى المحطة أنتظر خبرًا أو رسالة.

كان حبور الصباح الذي حلّ في المحطة ساعة إعداد الفطور قد غادرها بعد أن اشتدت حرارة الشمس، فصار الوقت ثقيلًا وبطيئًا. تسرب الملل إلى نفسي قبيل انتصاف النهار، فانتقلت عدواه إلى من جاءوا يأخذون رأيي في بعض الترتيبات التي لا تصرف ملكًا عن همومه. فجأة وردتني مخابرة من إحسان الجابري قال، دون أن يتمكن من إخفاء القلق الذي ساور نبرته، إن قنصل إيطاليا حذره من نوايا الفرنسيين الذين يزمعون إعلان خلعي عن العرش، متذرّعين بأنني كنت السبب في إشعال الحرب، ولأنني عزلت نفسي بخروجي من عاصمة ملكي!

قررت العودة، ودون استشارة أحد، أمرت بالاستعداد فدبّت حركة عجلى على رصيف المحطة، وسرعان ما تحرك القطار يحمل أعضاء الحكومة راجعًا في السكة التي عبرها يوم أمس. جهدت في ضبط انفعالاتي ورحت أرتب أفكاري: يتابع نوري اتصالاته مع ضابط الارتباط الفرنسي، ويسعى الجابري إلى عقد اتفاق من أجل تشكيل حكومة يرضى عنها الفرنسيون. فكرت بالدروبي واليوسف اللذين يقدران على مفاوضة الفرنسيين. لا بد من تنازلات، ولا بد أن تكون للفرنسيين شروطهم.

كنت في غمرة أفكاري حين توقف القطار فجأة وسط الطريق. نهضت أتساءل عن السبب، وسرعان ما حضر تحسين قدري ليخبرني بأن نوري قد أتى في سيارته مسرعًا من دمشق يريد إعلامي بأمر طارئ. صعد إلى مقصورتي يلهث من التعب والارتباك. لم أره مرّة في مثل حالته حتى في أشد لحظات الخطر أيام الحرب، قال:

«أتوسّل جلالتكم العودة إلى الكسوة، لأن نوايا الفرنسيين تنذر بالشرّ». ورجاني أن أنتظر نتيجة المشاورات.

عاد القطار إلى الكسوة والخجل من تسرعي يغمر نفسي، وحيرتي من أمري تغرقني في الظنون، شعرت أنني لم أعد أملك زمام الأمر. ولأول مرة ندمت لأنني تركت دمشق يوم أمس. ما كان يجدر بي أن أغادرها ولو فرّ منها الجميع، ما كان يليق أن أبتعد فيما الناس يواجهون مصيرهم وهم صامدون في منازلهم وحاراتهم. خطأ يجر آخر، تسرعت في الخروج كما تسرعت في العودة. إنني وحيد وليس من يقدم لي استشارة مفيدة في هذه الساعة الحرجة. خابت آمالي وسرعان ما تفشت الخيبة في البلدة التي انتابتها عصر ذلك اليوم موجة من الكآبة المريرة.

كانت موجات من الأمل وأخرى من اليأس تتعاقب عليّ. لم يحلّ المساء إلا والضعف الناتج عن آلام صدري قد استبد بي. شعرت بضيق شديد ذهب بآخر قواي. كنت في أشدّ حالات اليأس حين أخبرت بوصول إحسان الجابري. لم أكن بحاجة في تلك اللحظة لأيّ خبر آخر. استعدت شيئًا من عزيمتي الخائرة ووقفت داخل مقصورتي متأهبًا لاستقباله مستعجلًا حضوره.

لم يفقد الجابري شيئًا من أناقته، وإن بدا عليه الهزال والتعب. كان يجهد حين دخل لمقابلتي في إظهار هدوئه رغم التوتر الذي علا قسماته، فلطالما تعود على كتم غيظه وعواطفه خلال خدمته الطويلة لدى السلاطين في إستامبول، حتى صار الكتمان طبيعة من طباعه. وقد لفتت انتباهي في تلك اللحظة حلّته السوداء التي اعتاد

ارتداءها في كل الأوقات، كما أثارت دهشتي قيافته، فبدا وسط العدد القليل من أعواني المتعبين كأنه ناظر في مدرسة ريفية بعيدة. لم يكن الجابري محبوبًا، فقد اتهم بأنه يضع بيني وبين الناس حجابًا بعد أن نُصِّبت ملكًا، وجاء من يوغر صدري ضده، ومع ذلك قدرت خبرته واحترمت تأديته لواجبه ووثقت بأمانته. لم تكن محطة القطار التي لونها الغبار تشبه قصرًا، وليست مقصورتي بهوًا أو ردهة في قصر اعتاد أن يخدم فيه. لقد جرتنا الأقدار إلى هذا اللقاء، وكان مشهدًا فريدًا أن يلتقي ملك بكبير أمنائه داخل قطار في قرية منسيّة ليبلغه آخر مساعيه.

وضع الأوراق التي أخرجها من الحقيبة الجلدية السوداء فوق الطاولة. ولم يكن بحاجة ليبدل من تعابير وجهه الجادة ليقول لي: بناء على أوامرك قمت باتصالاتي، وقد وفقنا إلى تشكيل حكومة تحظى بقبول الفرنسيين، ولم يبق سوى توقيع المراسيم.

حسبت أنها التسوية الوحيدة الممكنة التي تعيدني إلى مملكتي التي تقف على شفير السقوط والضياع. نظرت إلى الأسماء سريعًا قبل أن أتناول القلم لأوقع في أسفل الصفحة. ولم يتأخر القطار في إطلاق صفارة العودة.

كنت في حالة من اليأس لا يربطها بالحياة سوى خيط رفيع من الأمل، كتلك التي عشتها في الأشهر الأولى من الثورة. تمكنت الجيوش الثلاثة التي أقود أحدها ويقود شقيقي علي وعبد الله كلًّا من الجيشين الآخرين، أن تستولي على جدة وينبع والطائف ومواقع أخرى، وأن تحاصر المدينة دون دخولها. تحققت هذه الانتصارات

السريعة خلال الأسابيع العشرة التي تلت الثورة، حين بدأت الأمور تراوح مكانها، فبدت لعيني صعوبة الحرب. لم يكن لدينا سوى عشرات من الجنود النظاميين وعدد من الضباط الذين لم يكن بمقدورهم أن يصنعوا جيشًا من مقاتلي البدو الذين لم يتعودوا على الانضباط أبدًا. ومع ذلك، فإن شجاعتهم التي لا تحسب حسابًا للموت أو الخسارة هي التي أمّنت لنا الصمود. أخذ الأتراك زمام المبادرة في الهجوم حين كنت أتمركز مع قواتي في محيط ينبع التي تمكنت من السيطرة عليها في نهاية شهر تموز/ يوليو. قبل أربع سنوات كاملة، لم أكن أملك من البنادق سوى عدد قليل وأربعة مدافع قديمة قدمها لي الكولونيل ولسون. تراجعت أمام تقدم الأتراك وحسبت أن نهايتي مع الجنود والمتطوعين يمكن أن تقع في أي لحظة.

في نهاية شهر أيلول/ سبتمبر من ذلك العام، وصلت باخرة حربية إنجليزية صغيرة إلى ميناء جدة وعلى متنها اللواء عزيز علي الذي حضر من مصر للقاء والدي في مكة بغية الانضمام إلى صفوف الثورة وإنشاء جيش نظامي وتسليحه. كان حضور هذا الضابط المرموق مبعث أمل بالنسبة إليَّ، وقد عرفت بالمكانة العالية التي كان يتمتع بها في إستامبول خلال إقامتي فيها في دورة انعقاد مجلس المبعوثان. كان الباشا كما كان يُعرف رئيسًا لجمعية العهد التي تضم الضباط العرب السوريين والعراقيين على السواء، وكان اكتسب مصاف الأبطال نظرًا للمعارك التي خاضها، بل إن دوره كان حاسمًا في تطويق الثورة المضادة عام ١٩٠٩ وعزل السلطان عبد الحميد حيث صار من أبرز الشخصيات في إستامبول

على الإطلاق. كانت شهرته تعادل شهرة أنور وطلعت اللذين باتا حاكمي الدولة الفعليين. ولعل هذا الأمر أوغر صدريهما فاتهم بالخيانة وسجن وحكم عليه بالموت، مما عجل بانشقاق الضباط العرب وفرارهم من الجيش العثماني وقد رأوا كبيرهم وحاميهم قد فقد النفوذ والمكانة. أحدث اعتقال عزيز علي تدخلات من جانب الدول الأوروبية، فأفرج عنه لقاء مغادرته إستامبول، فرجع إلى مصر في اليوم نفسه الذي خرج فيه من السجن.

لم تتح لي فرصة اللقاء بعزيز علي في إستامبول. لكن أتباعه ومحبيه ممن نظروا إليه نظرة القائد والبطل لا ينكرون حدة مزاجه ومثاليته المفرطة. إنه يملك الصفات المثلى للعسكري في ميدان القتال، ولكنه يفتقر إلى حكمة السياسيين ودهائهم، وبدون أدنى شك فإنه لا يملك أناة أبي وطول باعه في الصبر والدهاء. لقد جعله والدي ينتظر شهرًا كاملًا قبل أن يستقبله، وأفهمه أن يهتم بشئون تنظيم الجيش وألا يتدخل في السياسة، ووضع أمامه العراقيل ولم يقدر مكانته. لقد أظهر والدي خشيته من الضباط في كل مراحل الثورة، وكان حريًا به أن يخشى من عزيز علي الذي انقلب على السلطان أن تراوده نفسه بتكرار ما فعله في إستامبول.

كان والدي الحسين وعزيز علي شخصين مختلفين لا يمكن لهما الاتفاق، الأول رئيس عشيرة يجمع بين مكر البدو وعنادهم وتمرسه في دسائس القصور في إستامبول، أما عزيز علي الذي تعلم النظام في المدرسة الألمانية العسكرية، لا يعرف المواربة ولا يعرف كيف يكتم عواطفه وأفكاره، فقد صرح بأنه يملك مشروعًا لإقامة اتحاد عثماني عربي على غرار الاتحاد الهنجاري والنمساوي، وهذا

ما أثار حفيظة والدي الذي اعتبر نفسه ندًّا للسلطان وملكًا للعرب وأثار حفيظة القيادة الإنجليزية في القاهرة التي عجلت بإبعاده عن الحجاز، فمنح إجازة بعد إقامة لا تتعدى الستة أشهر في صفوف جيش أخي علي ورجع إلى القاهرة، بينما قرار نفيه السري قد طبع ووقع ليبعد إلى إسبانيا طوال سنوات الحرب.

لعلني كنت في قرارة نفسي أقرب إلى الفكرة القائلة بمملكة عربية تركية وفي وقت من أوقات الحرب، حين أرسل لي جمال باشا مبعوثه سعيد الجزائري، كنت على استعداد لعقد صلح مع الأتراك على أساس منح العرب لاستقلالهم الذاتي، الأمر الذي رفضه والدي الذي أصرّ على مواصلة الحرب حتى هزيمة الأتراك، ولعلّ والدي كان على حق، ولست متيقنًا من إدراكه لكون الإمبراطوريات الثنائية القومية قد ولّت مع اندلاع الحرب، ولكن إصراره على الالتزام بالعهود التي وقعها مع الإنجليز جعله يرفض كل صلح مع الأتراك.

فوق الباخرة الحربية الصغيرة التي نقلت عزيزعلي إلى جدة حضر عدد من الضباط مرسلين من القيادة الإنجلزية في القاهرة. كنت في وادي صفرا حين بُلّغت بوصول الوفد، الذي استقبلته في أحد منازل قرية الحمرا. كانت مهمة الفريق استطلاع حاجاتنا من المعدات العسكرية التي نفتقر إليها. تبادلنا المجاملات وأطراف الحديث والحذر، لكن الكابتن لورنس، الذي قدم نفسه بأنه تابع لقلم المخابرات، كان أقلّ حذرًا من زملائه وأخذ يتكلم بعربية أقرب إلى لهجة البادية السورية. كان يكثر من الأسئلة ويسرف في عرض آرائه التي أثارت حفيظة الضابط مولود مخلص الذي كان

حاضرًا لقاءنا والمتلهف لقتال الأتراك، والذي لم يكن ليستسيغ سماع محاضرات عن تاريخ العرب من ضابط إنجليزي. وإذ أتذكر اليوم لقائي الأول به واجتماعاتنا التي تكررت في معسكري في وادي الصفرا، فإنني لا أنكر الانطباع القوي الذي خلفه والشكوك التي أثارها حوله.

كان اهتمامي منصرفًا آنذاك إلى المساعدات التي وعدتنا بها البعثة الإنجليزية التي ضمت لورنس في عدادها. وحين ودّعته قال بأن ما يلزمنا من السلاح يصل خلال أسابيع قليلة.

في الأسابيع القليلة التي تلت زيارة الوفد العسكري الإنجليزي تدهورت أوضاعنا القتالية، واضطررت للانسحاب إلى وادي ينبع حيث تيقنت من أن صمودي لن يطول سوى أيام قليلة بعد أن أغارت علينا الطائرات التركية بقنابلها التي أفزعتنا وروّعت أهل رابغ. كان مشهد الطائرات المحلقة أشد هولًا من قنابلها، لكن الأمور سرعان ما تبدلت حين ظهرت في سماء ينبع طائرات إنجليزية سبقت وصول المدافع التي أدخلت الطمأنينة إلى نفوس المقاتلين والأهالي. أدركت ساعتها أن بمقدوري أن أبادل الأتراك قذائفهم، وبدأت أعد خططي من أجل التقدم صوب الشمال.

٧

توقف القطار في محطة القدم قبيل منتصف الليل وحين هممت بمغادرته انتابني شيء من التردد، لم أكن خائفًا ولكنني فكرت فيما إذا كانت عودتي هي القرار المناسب. هبطت إلى الرصيف فداهمني السكون المخيم الذي أدخل الرهبة إلى قلبي، كانت سيارتي التي عاد بها السائق بانتظاري وإلى جانبها نوري السعيد يقف منتظرًا. عبرنا المدينة الغافية أو التي تتظاهر بالنوم، وكان نوري الذي جلس إلى جانبي يخبرني بعبارات متقطعة عن أحداث النهار واحتلال الفرنسيين لبعض المواقع داخل المدينة. استفسرته عن اتصالاته فلم تزدني إجاباته إلا غموضًا، كانت الأمور مبهمة ونوايا الفرنسيين يسودها الالتباس، تشوشت أفكاري ولم أعلق بأي كلمة أو عبارة.

لم يكن وصولنا إلى القصر ليستغرق سوى دقائق قليلة عبرنا خلالها الشوارع المقفرة التي يسكنها الصمت والظلام، أنوار قليلة كانت تضيء القصر الذي بدا موحشًا، ترجلت من سيارتي بينما تقدم صوبي عدد من الحراس الذين كانوا بانتظاري، كما عدد من الأشخاص الذين علموا بخبر عودتي. استأذن نوري قائلًا إنه

سيعود بعد قليل، وحين سألته عن الجهة التي يقصدها، قال إنه يذهب لإحضار فوزي القاوقجي ليؤمن حراسة القصر مع جنوده.

دخلت القصر حيث استقبلني عدد آخر من الأشخاص الذين تجمعوا في حلقات الباحة الداخلية. حييتهم وصعدت إلى بهو الاستقبال وقد تبعني الأشخاص المتلهفون لمعرفة ما يجري ولم يكن لديّ الكثير لأخبرهم به.

لعلع الرصاص في الخارج، فأحسست بالاضطراب الذي انتشر في أرجاء البهو، أسرع تحسين وزيد يستطلعان الأمر. كان نوري الذي توجه إلى إحدى الثكن قد أحضر فوزي القاوقجي مع جنوده لينتشروا حول القصر لتأمين حمايتي. وعند وصوله أطلق أحد حراسي من الهجانة الرصاص على القادمين فأصابوا جنديًّا ما لبث أن قضى لساعته. كنت لا أزال أستفسر عما جرى حين دخل القاوقجي، ألقى التحية العسكرية وتقدم نحوي يطالبني بتسليم الفاعل.

نهضت من مقعدي وتوجهت صوبه أهدئ من غضبه، كنت أعرف القاوقجي ومزاجه الحاد، ومثل كل الذين تلقوا تدريبًا ألمانيًّا خلال خدمتهم في الجيش العثماني. كان صارمًا في تطبيق النظام والتزام الواجب. لم تقنعه الثورة فبقي يحارب في صفوف الجيش العثماني حتى نهاية الحرب، وبعد توقيع الهدنة التجأ إلى مدينته، حيث التقيته خلال مروري في الرحلة التي قادتني من حلب إلى بيروت قبل سفري الأول إلى أوروبا. مكثت في طرابلس يومًا ولم أنسَ أن أطلب لقاءه، شجعته أن ينضم إلينا في دمشق فامتثل للأمر. كان ضابطًا واعدًا ولا أدري ما ستخبئ له الأيام. تقدمت صوبه قائلًا: «أين حكمتك يا فوزي، تطلب مني أن أسلمك حارسًا قام

بما اعتقد أنه واجبه، وكل واحد فينا معرض في هذه الساعة للمصير الذي أصاب أحد جنودك؟ امتثل للأمر وتراجع خطوتين ليؤدي لي التحية مرة أخرى قبل أن ينسحب خارجًا من القصر.

كدر الحادث نفسي وأثار في رأسي الظنون، وعدت إلى مجلسي والهموم الكثيرة تشغلني. كان أول الأمور التي أردت معالجتها هو أمن المدينة. طلبت من نوري أن يقدم كشفًا بعديد قواتنا، قال: سيدي، لم يبق لدينا سوى بضع عشرات من الجنود تحت السلاح، وأضاف: لا خوف على أمن المدينة إلا من احتمالات الانتقام. فساورتني المخاوف من ردود فعل الأهالي وطلبت إليه أن يسعى إلى حماية الأحياء التي يسكنها المسيحيون، ورجوت يوسف الحكيم أن يبلغ البطريرك دقّة الموقف.

ترى ما الذي سيكون من شأن الغد؟

بدأت الأمور في الصباح بداية طيبة. حضرت وفود الأهالي إلى القصر لتهنئتي بالعودة، فشدّ حضورها من عزيمتي، وتهيأت لاستقبال رؤساء الأحياء والطوائف التي لم تتأخر في إثبات ولائها. كنت أنتظر موعد اجتماعي مع الحكومة الجديدة، حين حضر تحسين قدري يخبرني بأن ضابط الارتباط الفرنسي يطلب لقاء عاجلًا. ظننت أنه جاء يرحب بعودتي أو أنه أرسل من طرف قيادته لإبلاغي بعض المطالب والشروط. دخل إلى قاعة مكتبي وعلامات الإرتباك بادية على وجهه، كان اللقاء مختصرًا ومشدودًا، استأذن بإبلاغي قرار حكومته التي تطلب مغادرتي دمشق خلال ثماني وأربعين ساعة.

خرج الضابط الفرنسي وصرت وحدي خلف مكتبي في القاعة الواسعة. ملك وحيد يجابه دولة عظمى بدون جيش أو حكومة وبدون حلفاء وأعوان. وحيد في هذا العالم المنشغل بقضاياه وحروبه وثوراته. الأمريكان أداروا ظهرهم للعالم بعد أن نشروا الآمال عن حقوق الأمم في تقرير المصير، والإنجليز غضوا بصرهم لكي لا يغضبوا حليفتهم فرنسا، والألمان يقاومون ضغوط الحلفاء وإذلالهم، والروس مأخوذون في حروبهم الداخلية يثيرون مخاوف أوروبا من انتشار البلشفية، ومصطفى كمال يحقق الانتصارات ولن يتطلع إلى ملك كان خصمه في ميدان القتال قبل سنتين، أما والدي فلن يقدر أن يساعدني بغير النصائح.

لست لينين الذي وقف حزبه وراءه في كل قراراته حتى صار شبح البلاشفة يقلق أوروبا. أنا الذي دعمت حزب الفتاة وسلمته قيادة البلاد، كنت أول من خاصمه أعضاء الحزب الذي انضممت إلى صفوفه قبل إعلان الثورة.

حرضوا الناس في الشوارع وأخرجوا المظاهرات وسيطروا على قرارات المؤتمر، وأوصلوا البلاد إلى حافة الفتنة ولم يرضوا إلا بالهزيمة الكاملة.

لست مثل مصطفى أتاتورك، ولا أملك حزمه العسكري وإرادته. كانت معاركه أشبه بأعمال العصابات المسلحة، لكن الجيش التركي المهزوم وقف معه ووقف الشعب وراءه، لم يضع وقته في مفاوضات لا طائل منها ولم يسلّم أموره إلى رجال لم يخلصوا للمسئولية الملقاة على عاتقهم. كنت أفاوض قادة الدول في باريس

ولندن، بينما رجال الحكومة مشغولون بخصوماتهم ودسائسهم والأحزاب مأخوذة بصراعاتها.

جرى كل شيء بسرعة كأن الأمور قد رتبت سلفًا، لم يخرج الضابط الفرنسي حتى حل موعدي مع الحكومة الجديدة. دخل رئيسها الدروبي وخلفه اليوسف والوزراء مطأطئي الرءوس، دعوتهم للجلوس فيما الصمت يحتل المكان برمته، قلت: علمت بكل شيء ولستم بحاجة للشرح أو الاعتذار.

نهض الدروبي وتقدم صوبي متوسلًا: سيدي، إننا نضع استقالتنا بين يديك، ولتأمر جلالتكم بما تشاء.

لم تثر توسلاته غير شفقتي. طلبت إليه أن ينصرف إلى الاهتمام بشئون الناس فخرج يتبعه وزراؤه. ليس الدروبي خصمًا ولا قادة الأحزاب الذين هيجوا الشارع أعدائي، ولكن معركتي هي مع الفرنسيين الذين يريدون هزيمتي الأخيرة. ليست قوتي التي تخيفهم ولكن ما أرمز إليه، ترهبهم العروبة الفتية والسوريون الذين عرفوا الاستقلال والحرية.



٨

جلست خلف مكتبي مرة أخرى لأكتب مذكرة احتجاج. طلبت من الجابري أن يجمع كل الوثائق والاتفاقات والوعود المدونة، لتكون مذكرتي موقفًا أبلغه للدول وأتركه للتاريخ. أعرف أن أحدًا لن يهتم، فقد تعلمت من خلال التجارب أن المواثيق التي لا تدعمها القوة لا قيمة لها، ولكني أردت أن أترك صوتي لتسمعه الأجيال المقبلة وتقرأه في الكتب والمحفوظات.

أعرف أنني أخطأت، لكنني على يقين من أن التاريخ سينصفني. كان بإمكاني أن أهادن وأن أساوم وأن أعقد الاتفاقات السرية، لكنني لم أفعل. أخطأت بخضوعي لأهواء الأحزاب، أخطأت باستخدام اللين بدل الحزم فصرت ضعيفًا بنظر الجميع، أخطأت بخروجي من دمشق وعودتي إليها، لكن أخطائي ليست هي التي قررت مصيري. في الوقت الذي كنا نستعد فيه للثورة، حين كان والدي لا يزال منهمكًا في مراسلاته مع مكماهون، كان موظفان في الخارجيتين الفرنسية والإنجليزية يرسمان الخرائط ويتوزعان البلاد سرًّا. في الوقت نفسه الذي كان مكماهون يكتب مذكراته التي يعد فيها والدي باستقلال الدولة العربية ويجادل في التفاصيل،

كان سايكس البريطاني وبيكو الفرنسي يفاوضان الروس على تقاسم مناطق النفوذ بعد الحرب. وكل ذلك لم يمنع وزير الخارجية الإنجليزي من أن يطلق وعده لليهود بإعطائهم أرضًا لا تخصه متجاهلًا سكانها وأصحابها.

لقد توهمت أنني أستطيع أن أجابه هذه المخططات. كنت واثقًا من قوتي حين كانت الحرب دائرة والرجال يحققون النصر. لم يكن أمرًا مستحيلًا، كنا أقوى من مصطفى كمال حين بدأ بتجميع قواته، لكننا تراخينا حين كان الحزم ضروريًّا وانقسمنا حين كانت حياتنا متوقفة على وحدتنا.

أعرف أن ما جرى سينسب إليَّ. كل المسئولية عن المخططات والمعاهدات التي لم أطلع عليها ولم أبلغ بما تحتويه. سيسقطون من حسابهم مؤامرات الدول وسيتناسون قادة الأحزاب الذين أثاروا الفتن وهيجوا البسطاء، ولن يحسبوا حساب المتواطئين والمتعاملين مع الفرنسيين في الخفاء. سيقولون إن فيصلًا هو الذي هزم وخرج من المملكة مطرودًا، لأنني ترددت ولم أحزم أمري، ولم أعرف كيف أدير الرجال وتركت العامة والأهواء والأحزاب تتلاعب بمصير المملكة ومصيري.

كنت أخط الأسطر على الورق أمامي، أدون فوقها احتجاجي، بينما أفكاري منصرفة إلى البداية التي قادتنا صوب الشمال.

أزمعت على التقدم شمالًا في الخريف الذي تلا إعلان الثورة، بعد أن حظيت بالمدافع والبنادق. جعلت مدينة «الوجه» على البحر نصب عيني. لم ألقَ تشجيعًا من الفرنسيين الذين كانوا يكثرون

النصائح ويبخلون بكل شيء آخر. ولكنني وجدت عونًا من الإنجليز الذين مدّونا بالمال والسلاح. انصرفت إلى إعداد الرسائل إلى عشائر الحويطات وبالي والرولا أعلمهم بنيتي الاستيلاء على الوجه، أما قواتي التي كانت تتكون من بضع مئات من رجال العشائر الحجازية تحت قيادة الشريف ناصر، أما الأسلحة فكانت بعهدة ضباط مجرّبين، المدافع بإشراف راسم سرادست والرشاشات بإمرة عبد الله الدليمي. كانت الطريق إلى الوجه مسارًا متعرّجًا وصعبًا وصلنا في نهايته إلى تلك البلدة البحرية التي دمرها القتال. عينت مولود مخلص حاكمًا ليضبط الأمن ويمنع النهب والثارات. وعندما دخلتها شعرت بأن الأوقات التي كنا فيها عرضة للاختناق قد ولّت. وكان عليّ مذ ذاك أن أتدبر شئوني بمفردي وأن أرسم خططي بعيدًا عن والدي.

أغرى استيلاؤنا على الوجه العشائر المترددة بالانضمام إلينا، وقد أضحت تلك البلدة البحرية قاعدة للثورة ومعسكرًا لجيش الشمال يأتي إليها الأعراب ليبحثوا عن حاجاتهم، إذ أصبحت بحلولنا فيها سوقًا مزدهرًا. وكان لإقامة معسكرنا الذي يضم المئات من المقاتلين والجنود أن يخلق حب الفضول لدى العشائر التي تصبو إلى الخروج من بؤسها وفقرها، طامعة بالمكافآت التي كنت أوزعها بسخاء لكل من يؤدي خدمة للثورة. وصارت مضافتي محط أنظار رؤساء العشائر أستقبل فيها الشيوخ الذين يأتون لعرض مشاكلهم ورواية أخبارهم وتقديم ولائهم. وكان عليَّ أن أستمع إليهم وأحكم بينهم وأحل خلافاتهم وألبي طلباتهم. وقد اكتشفت موهبتي في القيادة، كما أدركت السحر الذي يجعل الرجال

ينصاعون لي، ووثقت بقدرتي على كسب ولاء أي شخص مهما كان شأنه في أول لقاء لي به. وكنت أحرص أن يخرج كل واحد وقد رضي بحكمي وبنصيبه من الهدية التي أجزيها له.

رسخت الثورة أقدامها خلال إقامتنا في الوجه. وفي الوقت الذي تعثرت محاولة عزيز المصري في إنشاء جيش نظامي وقفل عائدًا إلى مصر، حضر من القاهرة اللواء جعفر العسكري، الضابط المجرب الذي خاض العديد من المعارك في البلقان، والذي أوفده أنور باشا، ربما ليتخلص منه، إلى ليبيا لمساندة السنوسيين، فصرف همه لمهاجمة القوات الإنجليزية على الحدود المصرية، فوقع أسيرها جريحًا ونقل إلى مستشفى المعادي في القاهرة، وحين حاول الهرب من سجنه بواسطة حبل، لم يستطع الحبل أن يتحمل ثقل جسمه فوقع ليعود مهشمًا إلى مستشفى السجن. لقد أثارت جعفر أخبار الثورة التي اندلعت في الحجاز، واقتنع بعد مفاوضات مع الضباط الإنجليز بالانضمام إلى صفوفها. وصل إلى الوجه على ظهر سفينة مع عدد من الجنود الذين قدموا مثله للانضمام إلى جيش الثورة. وإذ أعلن والدي عدم رغبته الاستعانة بخدماته، وجدتها فرصة سانحة لضمه إلى معسكري وإيلائه مهمة إنشاء جيش نظامي بينما تابعت جهودي في كسب ولاء العشائر.

لم تكن مهمة سهلة أن أؤلف بين العشائر التي تنفق أوقاتها في نزاعات لا تنتهي وثارات لا يعفو عليها الزمن. جعلت نصب عينيّ مهمة لمّ شمل العرب المتفرقين وجمعهم حول قضية واحدة، بتسكين ثاراتهم وتوجيهها صوب عدو مشترك. كان كل من يأتي لزيارتي يضع يده على القرآن ليقسم قبل خروجه بأن يحسن معاملة

كل من ينطق بالعربية سواء أكان بغداديًا أم حلبيًا أم شاميًا وأن يضع قضية الاستقلال فوق العشيرة ومتاع الدنيا.

تجمع في الوجه أفراد جاءوا من جهات وأقاليم مختلفة ومتباعدة، ضباط عراقيون ومتعلمون من الشام، جنود من مصر وعشائر من نجد والحجاز. كان ينبغي أن أصنع قضية من هذا الشتات وأصنع شعبًا وجيشًا، كانت العروبة هي المفتاح السحري الذي أدخل به إلى الأعماق المخبأة تحت الصراعات العشائرية والإقليمية، جماعات لم تلتق من قبل، جمعتهم الثورة التي كانت في الوجه أشبه بمهرجان ينشد أناشيده ويغني أهازيجه ويرفع راياته وأعلامه وشعاراته. لكن الثورة كانت من جهة أخرى مسيرة حشدت الآلاف وانتقلت بهم من موقع إلى آخر حتى المحطة الأخيرة دمشق، تبدل خلالها الرجال والتقت الجماعات بالجماعات، تعارفوا، تفاهموا وتناقشوا وتغيروا في نهاية المطاف. أدركت، وكنت لا أزال في العقبة، أن العروبة لا بدّ أن تجمع بين مثالين، تلقنت المثال الأول للعروبة في صغري حين أرسلني والدي إلى مضارب عتيبة لأكتسب عادات العرب، عروبة أولية تدخل في صميم الطباع. والمثال الثاني تعلمته في دمشق، وهو أقرب إلى المبادئ والقيم والأفكار، وكان المتعلمون السوريون من أعضاء الجمعيات السرية قد صاغوا برنامجها ورسموا خرائط دولتها. وكان لا بدّ لهذه العروبة التي أخذت صورتها بالارتسام من أن تجمع بين عناصرها الأولية الفطرية وبين تعاليمها المدرسية، وأن تضيف إليها التقاليد القتالية للبدو الذين يتخففون من كل ما يثقلهم حتى عقالاتهم حين يبدءون بالقتال، وبين التعاليم العسكرية الألمانية والخبرات الإنجليزية.

كانت الوجه المختبر الأول للجمع بين المثالين واحتواء كل التجارب والتناقضات. كان أولئك الأشخاص الذين جاءوا من أماكن متباعدة يعيشون جنبًا إلى جنب في ظلي وتحت تأثير هيبتي يتقاسمون المخاطر والآمال والحياة المشتركة ويتخاطبون بلغة عربية واحدة.

كانت لغة عربية واحدة تعيقها اللهجات المتنافرة، جاءني جعفر العسكري يومًا ليروي لي، كيف أن فوج القبلة المكون من متطوعين أتوا من نواحي مكة قد تمردوا على قائدهم العراقي. وحين ذهب بنفسه ليتحقق من الأمر شكوا له أن قائدهم يكلمهم باللهجة التركية، وحين أخبرهم بأن ما يخاطبهم به هو اللهجة البغدادية اندهشوا، وأصروا على عدم فهمهم كلمة مما يقول. وحين أعلمهم بأنه سيطلب إليه أن يخاطبهم بالفصحى احتجوا مجددًا بأنهم ليسوا فقهاء ليفهموا الفصحى، فما كان من جعفر العسكري إلا الرضوخ فعين لهم مترجمًا ينقل كلام قائد الفوج من البغدادية إلى المكية.

لم تكن صياغة هذه العروبة والتأليف بين عناصرها بالأمر السهل. كنت أبذل الجهود لأجعل أبناء العشائر ينصاعون لأوامر الضباط النظاميين، وأن أوقف الثارات بين العشائر المتقاتلة، وأن أضم الضباط الذين تدربوا لدى الألمان إلى الضباط الإنجليز من أجل كسب الحرب ضد عدو مشترك. إنها العروبة الشريفية كما كانوا يسمونها في الأروقة الأوروبية. عروبة تنتسب إليَّ، لأنني أنا، وليس أي شخص آخر، قادر على التأليف بين هذه الجماعات والقوى. لن أنكر دور والدي، هو الذي استطاع أن يقنع العرب بالثورة على الأتراك المسلمين وأنا الذي ألهمتهم أن العروبة مؤتمنة على تراث عظيم.

توجهت أنظاري في تلك الآونة إلى كسب ولاء العشائر التي تضرب خيامها في المنطقة التي نتطلع إلى بلوغها باتجاه العقبة والشام. كان نوري الشعلان زعيمًا بارزًا في البادية، يعتبر نفسه ندًّا لسادتها ويبذّهم في حب المال والفتك بخصومه، لكنه أقلهم ورعًا. ولم يكن لديه النزوع للاستقلال والقيادة كما هو حال والدي الحسين أو ابن سعود في نجد. كان يرضى بأن يكون تابعًا، وقد نسج منذ سنوات علاقات ود مع الأتراك ومن خلالهم الألمان متذرعًا بحاجته إلى عطاءاتهم ليسد جوع الآلاف من أبناء عشيرته. لم أشعر بصعوبة استمالته طالما أن المال قضيته، كان لا بد من كسب ولائه وتحييده لأن عداوته ستعيق تقدمنا. أرسلت إليه بعض الرسل، وانتظرت، لكن انتظاري لم يطل ومساعيّ لم تذهب سدى. ولا أنكر بأن فرحتي كانت كبيرة حين أرسل لي مع أحد أقربائه فرسًا على سبيل الهدية فأيقنت أنني كسبت صداقته.

أما شأن عودة أبو تايه فمختلف، فهو فارس من فرسان الصحراء وأكثرهم شجاعة. وقد أصبحت أخبار شجاعته في المعارك التي خاضها حكايات تروى في أرجاء المنطقة الممتدة من العقبة إلى معانٍ. كان عودة أبرز زعماء الحويطات يثقل كاهله فقر عشيرته وعداواته التي تعرضه للخطر في كل لحظة. كانت أبهج لحظات إقامتي في الوجه حين دخل إلى خيمتي مصوبًا نظراته الثاقبة إليَّ، وبخطى ثابتة تقدم نحوي وانحنى لتقبيل يدي إشارة إلى الطاعة والولاء، وأقسم أن يجعل قضية العرب قضيته وأن لا يهاجم بعد اليوم غير الأتراك.

اعتبرت انضمامه إلى صفوفي بمثابة نصر لقضيتنا سرعان ما ظهرت

نتائجه. وهو نفسه اقترح الاستيلاء على العقبة بواسطة مقاتليه من عشيرة التوايهة، ولم يكن عودة رجلًا يرمي الكلام جزافًا.

انطلقت الحملة في أول أيار، ولم تكن الثورة قد أكملت عامها الأول. وكان هدفي من إطلاقها إقامة قاعدة في جهات درعا لأكون على اتصال دائم بالقبائل وعشائر الدروز والتقريب بينهم ورفع الضغائن استعدادًا لتحرير سوريا. عيّنت لقيادة الحملة الشريف ناصر، وكان خير من يقود حملة محفوفة بالمخاطر والصعوبات وغموض المهمات. لم يكن ناصر ليحظى بثقتي التامة فقط، ولكنه كان يفرض احترامه على كل من يعمل تحت قيادته ولطالما رأيت فيه القيم التي يمثلها الأشراف الذين يتحلون بالشجاعة والحكمة. وإذ انخرط في الثورة منذ يومها الأول، واشتهر بأنه أول من أطلق رصاصة فيها، فقد هجر منزله في المدينة حيث كان يحيا حياة هانئة واعتبر واجبه متابعة القتال حتى النهاية. وكان مع ناصر عودة أبو تايه الذي يمثل الوجه الآخر لأبناء الجزيرة، كان ناصر شريفًا حضريًّا أما عودة فقد نبت في البادية كما النبتة الصحراوية الجافة، كان ناشف العود لا يمكن لويه أبدًا، ولعله خير مثال على رؤساء العشائر الذين ملّوا معارك النهب والثأر وضجروا من خدمة أغراض القوى التي تتاخم أراضيهم وقد أتاحت له الثورة فرصة أن يحارب من أجل قضية تبناها وجعلها قضيته. أمّا نسيب البكري الذي خرج في عداد الحملة فقد كان من طينة أخرى، وجيه دمشقي مثقف يمثل الجيل الجديد من أبناء الشام الذين انضموا إلى الثورة التي اعتبروها سبيلهم إلى تحرير بلدهم، وكان نسيب لا ينفك يتحدث عن سوريا التي يستعجل الوصول إليها ويرسم لنفسه دورًا في إدارتها بعد النصر. وقد رافق الحملة لورنس

خبير المتفجرات الإنجليزية الذي كان يرى في نسف الخط الحديدي وسيلة لإشغال الأتراك. وقد كان حضوره الاستيلاء على العقبة نافعًا جدًّا. وقد عرف أهمية هذا الإنجاز، فتصرف منفردًا حين عبر صحراء سيناء ليتصل بالقيادة الإنجليزية في القاهرة، يعلمها بالنصر الذي تحقق ويطلب تعزيز جيش الشمال بالمؤن والعتاد والسلاح.

سارت الحملة التي يحرسها بضع عشرات من مقاتلي عشيرة عقيل، مئات الأميال في طريق متعرج شديد الوعورة. وقد انفصل عنها نسيب البكري ليتصل بنوري الشعلان وسلطان الأطرش، فقد كان يرى أن درعا أقرب إلى دمشق من أي مكان آخر. أما لورنس فقد ابتعد ناحية الخط الحديدي ليزرعه بالألغام التي تعطل وصول الإمدادات إلى القوة التركية المحاصرة في المدينة. وقد رافق عو·ة ناصرًا وجمع خمسمائة من مقاتلي عشيرته وشرع بمهاجمة مواقع الأتراك في أبي اللسن والقويرة وكثارة. وبعد شهرين من انطلاقها وصلت الحملة مع مقاتليها إلى العقبة حيث دارت معركة لن تنسى. قُتل من الأتراك ستمائة وأسر ثمانمائة وكان نصرًا لم يسبق للثورة أن حققته.

شكلت معركة العقبة انعطافًا في مسيرة الثورة. لم يتأخر الشريف ناصر عن إخباري بكل ما جرى، أمّا لورنس فقد توجه عبر سيناء إلى مصر ليتصل بالقيادة التي أضحت بإمرة اللنبي الذي أدرك أهمية الاستيلاء على هذا الموقع البحري، فلم يتردد بمدنا بما يلزم من أسباب الصمود في الموقع الذي أصبح تحت سيطرة جيش الشمال. بدأت أعد نفسي للانتقال إلى العقبة. وحين بلغتها وأقمت معسكري فيها صرت خارج حدود الحجاز. وقبل والدي أن أصبح على اتصال مباشر بالقاهرة، بدل مكة التي أصبحت على بعد سبعمائة ميل.

أنهيت كتابة مذكرتي وكان الوقت قد تجاوز الظهر. بسطت فيها كل ما أملكه من المستندات والحجج التي تظهر عدالة قضيتنا. أعدت قراءتها مرة أخرى قبل أن أنادي إحسان الجابري. طلبت إليه أن يُعد منها نسخًا يرسلها إلى معتمدي الدول في دمشق وإلى القيادة الفرنسية احتجاجًا على عدوانهم.

انصرفت إلى تدبير آخر شئوني في عاصمة ملكي التي أودّعها للمرة الأخيرة. ما الذي يمكن لملك أن يحمله من مملكة ضائعة؟ أوراق، وثائق، مذكرات، ذكريات، وأحلام مهدورة! لا يمكن أن تحمل مملكة فوق ظهرك، ولا تستطيع أن توضّب مملكة في قطار. دخل زيد ليقدم لي جردة بالذين سيخرجون معي: مئة من الحراس والخدم وخمس وعشرون سيدة من زوجات وبنات الشرفاء، وخمسة وعشرون جوادًا وسبع سيارات أحتاجها في تنقلاتي.

يا لها من حصيلة متواضعة. لن أحمل معي سوى أوراقي الخاصة، سأحمل في جيبي الدينار الذي أصدرته الدولة والذي يحمل اسمي، طوابع بريدية، قرارات إدارية، ماذا يبقى من مملكة ضائعة؟ تنازلنا مجبرين عن الساحل، ثم قبلنا بأن نترك فلسطين للإدارة الإنجليزية، وها هو الحجاز واقع تحت رحمة ابن سعود. لم يبق غير العراق، تُرى إلى أين ستمضي أحداث العراق؟ أخبرني راسم سرادست صباح هذا اليوم أن المجابهات بين الثوار والإنجليز انتشرت في سائر المناطق. العراقيون قلقون ومتلهفون للعودة إلى ديارهم، والفلسطينيون خائفون من النشاطات الصهيونية في بلادهم، واللبنانيون متكدرون من إجراءات غورو. أفلتت الآمال التي كنت رمزها وصانعها، تلاشت ولم يبق منها شيء.

لم يبق لي في دمشق سوى واجب واحد. ناديت الحصري وطلبت إليه أن يذهب مع إحسان الجابري لتقديم تعزيتي إلى أرملة يوسف العظمة. لم أكن قادرًا على مواجهتها، أوصيت الحصري أن يبلغها بأن ابنتها ليلى ستلقى رعايتي مثل بناتي مهما تقلبت الظروف وتغيرت الأمكنة التي سأحل فيها.

حل المساء سريعًا، خرجت إلى البهو لأستقبل المودعين وقد حملهم الوفاء إلى القصر لإسماعي آخر كلمات الولاء، وجهاء ورجال دين ورجال بسطاء، وجدت في كلماتهم الطيبة عزاء، كلمات بسيطة هي آخر ما سأحمله معي في رحلتي التي لا أعرف إلى أين ستقودني.



٩

لم يبق سوى الخروج. التفت خلفي أنظر إلى القصر المطفأ الأنوار فيما كنت أهم بركوب السيارة التي ستنقلني إلى محطة القطار. نظرة أخيرة كمن ينظر إلى المشهد الأخير من مسرحية. هنا، في هذه اللحظة الأخيرة، لم يكن أحد من الممثلين حاضرًا سواي، وليس ثمة غير بضعة متفرجين فضوليين، لا أعلم ما الذي حملهم على المجيء في آخر الليل ليشاهدوا ملكهم خارجًا من قصره إلى المجهول، رفعت يدي أحيي الرجال الذين توجهوا بأنظارهم نحوي ولوّحوا بأيديهم مودعين.

سارت السيارة بهدوء في شوارع خالية، كان كل شيء ساكنًا سوى الحريق الذي يضيء وهجه أعالي المباني، وحين صرت وسط المدينة صار المشهد أكثر وضوحًا، كانت ألسنة النار تُرى منبعثة من السوق القديم.

وصلت إلى المحطة وقد تضاعفت مشاعر قلقي، خشيت أن يكون حريقًا مدبرًا، وزاد في ارتباكي أنني لم أكن قادرًا على فعل شيء. تساءلت، هل يليق بي أن أغادر فيما المدينة مهددة بحريق سوقها؟ تقدمت صوب الجمع من المسافرين والمودعين الذين كانوا ينتظرون وصولي. اندفع أشخاص صوبي يقبلون يدي بينما ارتفعت

أصوات تهدج بالدعاء لي. أثار انفعالي حضور أشخاص تجشموا عناء الانتظار في تلك الساعة من الليل ولم يصدهم عن الحضور خوف. كانت لحظة السفر قد حانت حين خاطبتهم أو خاطبت نفسي: «أنا ذاهب إلى درعا ولا أعلم إلى أين أتوجه بعد ذلك. وستسمعون صوتي إن حييت. ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء ويختار».

لم أكن أعرف إلى أين ستقودني خطواتي، وقد سلمت نفسي لله والأقدار. صعدت إلى القطار الذي لم يتأخر في السير صوب الجنوب، فشقت إطاراته المعدنية بصريرها فوق السكة الحديدية الصمت كأنها تقطعه إلى نصفين، وابتعدت المدينة التي ينيرها اللهب المنبعث من حريق سوقها. شعرت بأسى أن تكون آخر ذكرى لدمشق مشهدها الملتهب قبيل الفجر.

أفكار كثيرة مرت في خاطري فيما أنا جالس في مقصورتي أنظر من خلال النافذة إلى الظلام الذي يملأ الفراغ الممتد بلا نهاية، ظلام الصحراء الذي لا يشبهه ظلام آخر بنجومه التي تشبه سحابات شفافة. لم يكن ثمة ما ينبهني إلى أفكاري سوى صرير الإطارات المعدنية الذي لا يأبه للسكينة أو الظلام. تساءلت في نفسي: كم من القطارات دمرنا وكم من أميال الحديد اقتلعنا قبل الوصول إلى دمشق؟ أرسل الإنجليز خبراء في المتفجرات، الكولونيل نيوكمب والكابتن لورنس والملازم غارلند. وقد أوكلت لهذا الأخير مهمة تدريب الجنود والمقاتلين من البدو على زرع الألغام. كان الهدف تعطيل وصول الإمدادات إلى الجيش التركي المحاصر في المدينة ومنع انسحابه أيضًا، وإشغال بطاريات من جيش العدو في أعمال إصلاح الخطوط المرهقة. وقد اعتاد الضباط المولجون بإعداد الألغام ونسف

القطارات إلى الحد الذي أصبحت المهمات التي يقومون بها أشبه برحلات صيد للقطارات. أكسبنا نسف القطارات انتصارات سهلة كبدت العدو خسائر فادحة. كان نيوكمب ولورنس يلهوان بعدّتيهما الميكانيكيتين اللتين يمكن التحكم بهما عن بُعد، وعند الضغط على الآلة كانت الألغام تنفجر لتتطاير المقطورات وتُقتلع السكك، وكان المقاتلون يكرّون إثر ذلك لينهبوا المؤن ويأسروا الجنود. كبدنا الأتراك ما لا يطيقون من الأسرى والقتلى والخسائر. وأسأل نفسي اليوم إذا كان الأمر قد استحق كل هذه الخسائر والتضحيات التي بذلناها وتكبدها الأتراك.

كنت أتخيل مشاهد القطارات المتناثرة فوق الرمال غارقًا في ذكريات لا تنتهي حين خطر على بالي سؤال وقع عليّ فجأة: ماذا لو كان هذا القطار الذي وضعه غورو تحت تصرفي كمينًا مفخخًا سينفجر بين لحظة وأخرى؟ انتابني فزع شديد! نظرت حولي داخل المقصورة نظرات خائفة، لمحت الحصري ينظر عبر النافذة إلى البعيد وزيد يغالب نعاسه، كدت أنهض لآمر بإيقاف القطار لكني عجزت عن القيام بأي حركة كأنني مشلول اللسان ومسلوب الإرادة. يدي وحدها تتحرك كأنها انفصلت عن جسدي المتعب وهي تنقل السيكارة بين الطاولة التي تستريح فوقها وشفتيّ المخدرتين.

استسلمت لقدري، ليس موتي أشد قسوة من هزيمتي وخروجي من عاصمة ملكي. مرت دقائق استسلمت خلالها لأفكاري وهواجسي. لا، قلت في داخلي، لن يقدم غورو على مكيدة خسيسة في ذروة انتصاره، سيتركني أمضي إلى منفاي ليتمتع بانتصاره فيما أنا أمضغ مرارة هزيمتي.

تبددت مخاوفي تديجيًّا فيما راح الصرير النزق للإطارات المعدنية فوق السكة الحديد يطرق رأسي. كانت السكة قد ربطت بين المدن في الساحل والداخل، ووصلت بين الدساكر والبلدات والعواصم. امتد الخط بين حلب وحمص وحماة ودمشق، ومنها إلى درعا ومعان وصولًا إلى المدينة في قلب الحجاز، وتفرعت الخطوط لتصل إلى بيروت والقدس وحيفا وغزة، مدن كثيرة ازدانت بمحطات القطارات التي صممت وفق نمط متشابه واحتلت موقعًا بارزًا في كل مدينة ودسكرة، وقد قربت المسافات بين الأقاليم المتباعدة التي تشكل عالم العرب. ارتسمت الأمة العربية وبرزت معالمها وفق خريطة السكك الحديدية وصارت أكثر وضوحًا وأشد منالًا، وكانت دمشق واسطة العقد في هذه الشبكة من السكك التي قرّبت المسافات بين الصحراء والمدن والسواحل.

سألت نفسي سؤالًا بدا لي غريبًا، لم يطرأ على ذهني من قبل، ما الذي يجمع بين العروبة وسكك الحديد؟ فكرتان تنتسبان إلى حداثة واحدة وعصر واحد، فكرتان حكمتا بالتنافر والطموحات المتناقضة. كان السلطان عبد الحميد الذي منح الامتيازات للدول الأوروبية لتمد خطوط القطارات يأمل أن يقرب المسافات بين أقاليم السلطنة ظنًّا منه بأنه يعطي جامعته الإسلامية روحًا عصريًّا. أما الدول الأوروبية فكانت تريد عبر هذه الخطوط أن تمد مصالحها وتروج بضائعها وسياساتها. تبنى والدي العروبة ورفض سكك الحديد، وكانت له أسبابه، كأنه بذلك يتبنى جزءًا من الحداثة ويرفض جزءًا آخر. إن تناقضات والدي تدهشني كلما فكرت به وبها.

كانت كلفة باهظة لا بد منها، غابات من الأشجار قطعت من أجل

تمهيد الخطوط، وآلاف الأطنان من الحديد الصبّ بذلت لأجل راحة القطارات وحسن سيرها. إنه عصر القطارات الذي يدشّن بداية القرن، السرعة واختصار الوقت، التقريب بين الأمكنة وانتشار الأفكار والبضائع.

وحده الشريف حسين كان يخاف هذه الحداثة، فأعاق وصولها إلى مكة. كان يخشى هذه الآلات المعدنية والغرف المصفحة التي يمكن أن تسلبه إمارته وتسلب العشائر مواردها في مواسم الحج.

وكان لا بد من الخيانات والتضحيات، وقد اكتفى والدي بالخيانة دون التضحية. خان الدولة التي أقسم على طاعتها، ولكنه أبى أن يضحي بالنموذج الذي درج على العيش في ظله. إنه يشبه السلطان عبد الحميد الذي عاش في كنفه سنوات مديدة. كان السلطان يريد أن يستخدم القطارات من أجل بعث دولته العتيقة، وأراد والدي من العروبة التي تبناها أن تخدم مشيخته التي لا تعترف بالعصر. وحدي أدركت من بين إخوتي أن الانخراط بالثورة يعني التضحية بالإمارة وتقاليدها والخروج على طاعة الأب الذي اتهمني بالخيانة والعقوق.

سرحت بأفكاري بعيدًا بينما القطار يواصل سيره بين الغوطة التي عبرناها إلى الكسوة التي لم يتوقف في محطتها. بزغت أنوار الصباح فأضاءت الجهة الشرقية من المقصورة الغارقة في الصمت. تساءلت في نفسي: كيف أمكن لوالدي الشريف حسين أن يدرك اللحظة المؤاتية والخطرة ليعلن الثورة، وهو في الستين من العمر؟ كانت مغامرة تكاد تكون قاتلة، ولكن الموت آخر ما يخشاه والدي. وقد

كان على يقين من أن الشرفاء من بني هاشم مصيرهم القتل. لطالما ردّد ذلك في مجالسه حتى أصبح عقيدة راسخة لديه، أتساءل إذا كان والدي على حق؟ أليس ما جرى لي هو ما اعتاد عليه أبناء بنت الرسول، تخلى الناس عني بعد أن دفعوني إلى مواجهة الظلم والعدوان، وها أنا وحيد لا أعلم كيف وأين تكون نهايتي؟!

أتساءل كيف أمكنه أن يعلن الثورة التي لا مرجع لها في قاموس فقهه، وهو الذي اعتاد الطاعة والامتثال، إذ لم يكن يضمر في داخله تقاليد آل البيت في الثورة ومقارعة الظلم؟ لعل ثورته نتاج عناده. كان عنيدًا ومعتدًّا بنفسه ونسبه. أذكر، وكنت لا أزال فتى، كيف جاء من يعرض عليه الهرب من إستامبول على ظهر باخرة إنجليزية، أغرته الفكرة وجاء يعرضها علينا، فوافقنا وقد أعيانا السأم من العيش في المنفى، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة. جمعنا وقال: اذهبوا أنتم إذا شئتم، أما أنا فسأبقى هنا، لا يليق بحفيد الرسول أن يفر على ظهر باخرة أجنبية. كان مدركًا للمسئولية التي يلقيها نسبه الشريف عليه، وقد أورثنا هذا الحس بالشرف والسيادة، ألم ينقاد له أبناء العشائر، ألم يأتوا إليَّ ليقبلوا يدي، يد أمير المؤمنين؟ يمكنهم أن يأخذوا الملك، ولكنهم لن يقدروا أن يسلبوني الشرف والسيادة.

رفض الهرب على ظهر باخرة إنجليزية، ولكنه بعد سنوات عقد مع الإنجليز اتفاقًا وحلفًا لم يجرأ عليهما أشد أعضاء الحركات السرية تطرفًا. كان مندفعًا في الانقلاب على الأتراك حين كنت لا أزال متردّدًا مغلبًا الحكمة في صِلاتنا مع الدولة. غاظه عنت ضباط الاتحاد والترقي الذين وضعوا أيديهم على الحكومة في إستامبول ولم يحتمل عجرفتهم وجهلهم. التقط فكرة العروبة التي كانت تتجول مع رجال

يتنقلون بها خفية بين المدن، تبنى رموزها والعلم والنشيد، فشخصت إليه الأنظار وصار اسمًا معروفًا في عواصم الدول. لا جدال يرباطة جأشه وصبره حتى يتجشم عناء كتابة وتدوين كل تلك الرسائل إلى مكماهون في القاهرة. كان يظن أنه يخطّ ميثاق العروبة ويرسم حدود دولتها فلم تعقه التفاصيل. كان معزولًا في عالمه وعاهته الكبرى عناده، أما خطيئته فاعتقاده أن الدول رجال لا يتنكرون لكلماتهم ووعودهم.

لن أعود إلى مكة مهما كلف الأمر. قلت في نفسي، فيما القطار يواصل سيره وقد بزغ نور النهار فانكشفت الحقول التي لم تستطع أن تخادع الصحراء التي تتربص بها. لن أعود للعيش في كنف والدي لأسمع نصائحه وتوبيخاته وأنتظر أوامره. سأذهب إلى درعا وأرى بعدها إلى أين يقودني مصيري.



١٠

وصل القطار إلى درعا فتوقف في محطتها التي غصت بعشرات ممن سبق أن غادروا دمشق هربًا من انتقام الفرنسيين. كان الوقت لا يزال مبكرًا، ومع ذلك حضروا يحثهم القلق وتدفعهم الرغبة لمعرفة وقائع الساعة الأخيرة. فُتحت أبواب القطار وخرج الرجال الذين رافقوني، وسادت الرصيف ضوضاء الاستفسارات والأسئلة. فرغت مقصورتي من رفاق السفر وصرت وحدي. آثرت البقاء لبعض الوقت علّني أرتاح من إرهاق السفر. كنت معبًا وقد أحسست بالمرض في داخلي. استدعيت الدكتور قدري الذي أخطرني، بعد أن قام بفحوصاته التي تعودت عليها، بدقة حالتي الصحية. ولأول مرة، منذ أوليته أمر صحتي، كلمني بلهجة آمرة وقد لاحظت على وجهه ملامح القلق، طلب إليَّ أن أرتاح وأن أتناول المقويات ونصحني بأن أتناول الطعام وأن أقلل من السكائر والقهوة. لقد مضى يومان لم يدخل جوفي غير القهوة ولم أذق طعم النوم.

لم يتأخر زيد في العودة إلى المقصورة. أخبرني عن الحالة في درعا، وفهمت أن أهالي حوران في حالة انتظار وترقب، وأن الرجال الذين أمضوا ليلتين بعيدًا عن دمشق لم يفقدوا بعد الروح المعنوية،

ومع ذلك فإن خروجي من دمشق قد نشر الارتباك بين صفوفهم. ولكن ما أثار غضبي وحنقي تصرف الشريف جميل الذي سبق أن عينته حاكمًا على حوران، لم يكتف بتجاهل وصول الذين سبق أن غادروا دمشق، بل أرسل إلى الحكومة في دمشق يخبرها بأن سبعين مشاغبًا قد حضروا من الشام يحرضون على القتال وينشرون أخبارًا مقلقة، وهو ينتظر الأوامر للقبض عليهم.

من يكون هذا الدّعي الذي صنعته وجعلته حاكمًا، الذي لم يأت لاستقبالي وتقبيل يدي، لن يقبض على أحد قبل أن أزهق روحه.

كنت غاضبًا، لكن زيدًا هدّأ من روعي وألحّ عليَّ بالخروج لأطرد الكآبة من نفسي. خرجنا سوية وكنت أشعر بضعفي ومرضي، وقد لمحت حالتي على وجوه الرجال الذين كانوا ينظرون اليَّ ويسرعون لمصافحتي وتحيتي. توجهنا إلى مقهى المحطة لتناول الفطور، لم تكن لديّ رغبة بتناول أي شيء غير فنجان من الشاي، جلست على مقعد معدني أمام طاولة تحلق حولها نوري السعيد وجعفر العسكري وأسعد داغر. حرصت على إظهار هدوئي والتغلب على ضعفي، وأخذت أحدثهم وأسألهم عن أحوالهم.

كان النهار لا يزال في أوله. عدت من المقهى إلى دار البلدية حيث أعد لي مكتب، دخلته وتركت الباب مفتوحًا. جلست خلف الطاولة في الغرفة العارية من كل شيء ورحت أكتب مسودة رسالة إلى المندوب السامي الإنجليزي في فلسطين. أردت استيضاح رأي حكومته بما جرى في دمشق، وتذكيره بأن إنجلترا كانت طرفًا

في الاتفاق الذي تذرعت به فرنسا لتحتل سوريا. ما أكثر اتفاقاتها ووعودها ورسائلها التي تناقض بعضها بعضا.

كانت الأزمة الأولى التي واجهتني بسبب هذا الاتفاق، يوم جاءني مولود مخلص، وكنا لا نزال في العقبة، ليقدم لي عريضة تحمل تواقيع الضباط الذين أعلنوا رفض القتال ما لم يتبينوا حقيقة ما كشفته الصحف عن الاتفاق بين الدبلوماسيَّيْن سايكس الإنجليزي وبيكو الفرنسي. كان موقفهم أشبه بانقلاب عسكري، وأدركت ساعتها سبب مخاوف والدي من الضباط وقد كره دائمًا أن يراهم على مقربة منه.

أرسلت أعلمه بأن الضباط يطلبون موقفًا صريحًا مما قرءوه وبلغ أسماعهم. فما كان منه سوى أن أرسل لي يطمئنني: إن الحلفاء أجلّ وأكبر من أن يخلوا بحرف من قراراتنا معهم!

أزاح موقف والدي حملًا عن كاهلي، إلا أنه لم يبدد شكوكي باطمئنانه وثقته بما كان قد توهّم أنه اتفاق ناجز مع الإنجليز، ولم يبدد شكوك الضباط الذين باستنكافهم عن القتال تسببوا بخسارتنا معركة فصوعة. ولم يرجعوا عن موقفهم إلا بعد أن أقسمت لهم بأنني لن أقبل بأقل من استقلال الأمة العربية غير منقوص. كانت الثقة بنفسي تجعلني أتوهّم بأنني قادر على تحقيق ما صممت عليه ولن تثنيني عن ذلك قوة أو دولة في العالم.

لعلّني وثقت بإرادتي أكثر مما ينبغي وبالغت في تقديري لقوتي. كنت عازمًا على تحقيق النصر مهما بلغت التضحيات ومهما كلفت الحرب.

في إحدى الليالي استدعيت لورنس، وبقينا نتحدث حتى ساعات

الصباح الأولى، لم يتطرّق أحدنا إلى الاتفاق مباشرة ولم يتلفظ أيّ منّا باسم سايكس أو بيكو، ولكننا تحدثنا عن أوضاع سوريا بعد الحرب. وكان رأي لورنس حاسمًا أن نتائج الحرب تتقرر في ساحات القتال، وعلى العرب أن يثبتوا جدارتهم في استحقاقهم لبلادهم. كان يردّد رأي الجنرال اللنبي الذي يقول بأن البلاد ستكون لمن يحررها. وقد عاهدت نفسي أن نكون أول الداخلين إلى دمشق.

كان انتقالي إلى العقبة إثر الانتصار الصاعق الذي حققه الشريف ناصر وعودة أبو تايه، بمثابة تحول في مسار الثورة والحرب، ليس فقط لأن دمشق أصبحت أقرب إليَّ من مكة، بل لأن العقبة أصبحت صورة أولى للتناقضات التي ستكبر بعد أن حققنا النصر وأقمنا الدولة في سوريا.

أضحت العقبة عاصمة للثورة، ومجتمعًا مصغرًا للعروبة، وصورة لسوريا المقبلة. انصاعت لنا آخر القبائل المترددة، وتوافد إلينا الجنود الهاربون من صفوف الجيش التركي تدفعهم الحماسة إلى عبور الصحاري وتكبد المصاعب والمخاطر، بل صار لدينا معسكر للأرمن المطرودين من ديارهم. اتسعت العقبة التي صارت سوقًا للقبائل التي يفد أبناؤها للتسوّق والبحث عن السلع والقماش والمؤن. في العقبة كثرت مشاكلي وزادت همومي.

جاءني نوري السعيد ذات صباح على غير عادته، استأذن بالدخول إلى خيمتي وبدأ يتحدث في أمور شتى. كان نوري السعيد، بالرغم من تمرّسه بمهنته العسكرية، ذا فطرة سياسية لا يفصح عما في داخله

مباشرة. قلت له: كل ما ذكرته عن السلاح والقتال والصعوبات نعرفه، ولكنك تريد أن تقول شيئًا آخر فلا تدُر حول ما جئت من أجله.

قال: اسمح لي يا سيدي أن أعبر عن مخاوفي من خطورة الوضع الذي ينذر بالشقاق. لا يخفى عليك أن رمضان شلاش يتصرف كأنه أمير يجلس في خيمته، ويقيم مضافات لشرب الشاي والقهوة واستقبال الزائرين كأنه في عشيرته. لكن مجلسه أصبح في الآونة الأخيرة مقرًّا لبث الفتن وتحريض السوريين على الضباط العراقيين واتهامهم بأنهم يستأثرون بالمناصب القيادية دون غيرهم.

هدّأت من روعه. وطلبت منه أن يبلغني بكل ما يجري ويسمع ويقال. كلفت زيدًا أن يتحرى عن الأمر من جهته. وعلمت أن المقدم علي خلقي من إربد هو الذي يثير الأحقاد ويحرض على الضباط العراقيين. أرسلته منفيًّا إلى مكة مع عدد من أصحابه، وكانت تلك، أشد عقوبة أتخذها خلال الحرب.

هدأت الحال، وانصرفت ثانية إلى مشاكلي الكثيرة.



١١

غادرت الغرفة التي أعدت لي بعد أن أنهيت كتابة رسالتي. لم أرتح للجلوس فيها، فقررت أن لا أعود إليها ثانية. كنت لا أزال في البهو الخارجي حين تقدم صوبي أسعد داغر ليشعل السيجارة التي أخرجتها لتوّي، وقد أحسست منذ الصباح أنه يريد أن يقول لي شيئًا، سألته: ما لديك يا أسعد؟

قال بعد شيء من التردد: يا صاحب الجلالة، أرجو أن يتسع صدرك لبضع كلمات من أحد المخلصين لك، يريد بعض الإخوان منك السفر إلى أوروبا لعرض القضية أمام عصبة الأمم. ولكنني أعتقد بأنكم لا تقرّون هذا الرأي، لأنكم خير من يعلم بأنه ما من ملك ترك بلاده في مثل هذه الحالة وعاد إليها. وأنا واثق من أن حوران ستلبي الدعوة إلى القتال، إذا دعيتها، ثم لا تلبث سورية كلها أن تلتف حولكم من جديد.

كانت كلماته صادقة ومؤثرة، وقد أثّر بي قوله إنني لو غادرت أرض سورية فلن أعود إليها ثانية. لم يقل لي أحد شيئًا مماثلًا قبله، رغم أنني شعرت في قرارة نفسي حين غادرت القصر مجبرًا صباح هذا اليوم بأنني لن أعود ثانية إليه. كان لا يزال يتحدث إليّ حين انضم كل من

زيد ونوري إلينا، كانا أقل ثقة بأهل حوران وأقل إيمانًا بالقدرة على مقاومة الفرنسيين. لم أعلق بكلمة أو رأي، ولكنني أجبت بأنني لن أقدم على أمر قبل أن أقتنع بالقرار الذي سأتخذه. وتابعت في سرّي: لن أستمع بعد الآن إلى الآراء المتناقضة لأستخلص منها قرارا، لن يؤثر بي أحد ولن أرضخ لأي جهة أو حزب.

ناديت مرزوق الكحيمي، رئيس التشريفات في القصر وقائد حرسي الذي رافقني في كل مراحل الثورة منذ أن جعلته المضايفي الذي يعتني بزواري، وطلبت منه أن ينصب لي خيمة عند رصيف المحطة لاستقبال الوفود التي بدأت بالوصول من قرى حوران. كان مرزوق لا يزال متأثرًا بالمعركة التي شارك فيها مع هجانته وقد فقد عددًا منهم. عزّيته مرة أخرى قبل أن يمضي إلى ما كلفته به.

أمضيتُ جزءًا من النهار أستقبل رؤساء العشائر الذين علموا بوصولي إلى درعا، فجاءوا مع وفود من عشائرهم مصطحبين الخطباء والشعراء يلقون الخطب الرنانة والقصائد في مدحي وذمّ الفرنسيين. كنت أعرف كلفة هذه الخطب والقصائد، أنا الذي عودتهم على الأعطيات الكريمة. جاء وفد من عقيل وانتصب خطيبهم يمجد أبناء عشيرته الذين بذلوا التضحيات في مواجهة الفرنسيين في وادي بردى، أخرجت آخر ما تبقى لي من الليرات أنقده لشيخهم ولم يتبقّ معي من المال شيء.

غرقت في أفكاري بينما الخطباء يلقون خطبهم والشعراء يلقون قصائدهم، لقد مررت هنا قبل سنتين وأقمت لبعض الوقت أستميل هذه العشائر استعدادًا للنصر الأخير. لم أكن أقلق على المال الذي

يأتيني بكثرة وأوزعه على المترددين من رؤساء العشائر. كسبنا نوري الشعلان والتحق بنا دروز حوران بعد أن رءوا النصر على مقربة من ديارهم، فجهزوا أتباعهم والتحقوا بالجيش الذي يستعد للدخول إلى دمشق.

كانت المهمة التي تشغلني آنذاك، هي أن نكون أول الداخلين إلى دمشق. فمن يدخلها أولًا يقرر مصيرها. ومع ذلك فإن والدي لم يمد لي يد العون، لم ينس أحقاده ولم يتخل عن عناده. حين كنا نستعد لآخر انتصاراتنا، طلبت إليه أن يرسل أخي عبد الله مع جيشه ليؤازرنا في فتح جبهة جديدة ضد الأتراك في معان، رفض محتجًّا بأن عبد الله سيبقى في مواقعه حتى استسلام القوات التركية المحاصرة في المدينة. وإزاء رفضه قررت القيادة الإنجليزية إيفاد لورنس لمقابلته في جدة، ولكن والدي رفض متذرعًا بأنه لن يقدر على مغادرة مكة في شهر الصيام. فعاد لورنس خائبًا دون أن يحظى بلقائه.

لم يكتف والدي بذلك! كنا نهيئ لهجومنا الأخير في آب/ أغسطس شهرين قبل بلوغنا دمشق، حين كتب في جريدة «القبلة» التي يحررها ويصدرها في مكة، أنه لا يعترف بجعفر العسكري قائدًا لجيش الشمال وأنه لا وجود لمثل هذا المنصب في الجيش العربي أصلًا. قرأ جعفر الخبر في الجريدة، ولم يكن منه سوى أن قدم استقالته وتضامن معه الضباط الذين قدموا استقالة جماعية شلّت العمل باستعداداتنا القتالية، وكان أشد ما آلمني قول جعفر إنه لا يريد أن يزجّ نفسه في خلافاتنا العائلية. والحق أن قوله قد فاجأني، فلم أكن أعرف أن أخبارنا العائلية وخلافاتنا قد باتت مادة للتندر في أوساط الضباط والجنود.

رفضت الاستقالة، وبدلًا منها أرسلت إلى والدي استقالتي وطلبت من زيد تولي أمور القيادة مكاني. ولم يتأخر جوابه، أرسل يتهمني بالخيانة والخروج عن القانون، وثبت زيدًا لقيادة جيش الشمال، فقررت أن أترك كل شيء وقد بلغت حافة اليأس من إصلاح الصدع بيني وبينه. ولكن زيدًا جاء يتوسلني ألا أتركه في هذا الوضع الحرج، وأرسل إلى مكة ينذر بخطورة الموقف.

مرت أيام صعبة وقلقة. كنت خائفًا على الجيش من التفكك وأن تؤدي الأزمة إلى إحباط كل ما حققناه وكل ما ننوي تحقيقه في الأسابيع القادمة. تدخل الجنرال اللنبي وأرسل من القاهرة إلى مكة يطلب رفض استقالتي. لكن والدي أصرّ على رأيه وموقفه، فأجاب اللنبي باتهامي بالخيانة والخروج عن طاعته، وقال في رسالته: لن أرفع إصبعًا واحدة لأساعد فيصل على احتلال دمشق.

رضخ والدي في نهاية الأمر ورجع جعفر إلى منصبه وعاد الضباط إلى مواقعهم وعدت إلى قيادة جيش الشمال، بعد أن بلغت الأزمة حدًّا ينذر بكل الأخطار. قررت يومذاك، أن أنجز مهمتي في الوصول إلى دمشق وتحقيق النصر الذي كلفنا سنتين من التضحيات، لأنسحب بعد ذلك. أدركت آنذاك أن أسباب الثقة بيني وبينه قد تقطعت، بعد أن انقاد لغيرته وشكوكه، فكيف يمكن لي بعد كل ما جرى أن أعود لأعيش في ظله؟

كان يومي الأول في درعا مرهقًا طويلًا، أمضيته في استقبال وفود العشائر الحورانية، وقد شعرت آخر النهار بالتلف. كنت أرد على كل خطيب بخطبة، ولم تكن إلا كلمات وتمنيات وعادات عشائرية، لأن

رؤساء الوفود كانوا يجلسون إلى جانبي ليسألوني بأصوات منخفضة عن موقف الإنجليز والضمانات التي ينتظرون حصولهم عليها حتى يشرعوا في المقاومة.

لا أملك أي ضمانات، وأنا عالق بين أن أبقى في درعا لأنظم المقاومة ضد الفرنسيين أو أن أمضي إلى عصبة الأمم مستخدمًا صوتي وحقي، وكلا الأمرين منوط بموقف الإنجليز.

كنت أفكر بالأمر وأقلبه على وجوهه، لن تمدني إنجلترا بالمال والسلاح لأقاتل فرنسا، أما أخي عبد الله فقد خسر جيشه في معركة تربة ولم ينج إلا بأعجوبة وأبي خائف من محاصرة أتباع ابن سعود له. أما جيش الشمال فلم يبق منه سوى بضع عشرات من الذين ينتظرون معي في محطة درعا باحثين عن مكان آمن يلجئون إليه.

كانت خياراتي عديدة في زمن الحرب، أما الآن فلم أعد أملك زمام نفسي.

في وسط الحرب كنت قادرًا على إيقاف القتال وتوقيع الصلح مع الأتراك. كنت في معان، في الأسابيع الأخيرة التي سبقت دخولنا دمشق، حين حضر الأمير سعيد الجزائري حاملًا رسالة من جمال المرسيني قائد الجيش الرابع التركي، عارضًا الصلح، لم أكن لأثق بسعيد الجزائري وتقلبات مزاجه، لكن الرسالة هي التي أثارت اهتمامي. اجتمعت به مع زيد وفايز الغصين، وتناقشنا خلال ليل طويل حول ما يجمعنا مع الأتراك من مصالح وتاريخ، وأن الوقت قد حان لوقف القتال وسفكه. لم تكن النيات الطيبة لتقدم وتؤخر، لذا قررت أن أحمّل الجزائري رسالة صريحة: إن العرب لا يطلبون

سوى الاستقلال، وأن يعيشوا مع الأتراك كما تعيش بافاريا مع بروسيا. طلبت انسحاب الجيش التركي من سوريا حتى نتمكن من عقد الصلح وفتح صفحة جديدة بين الشعبين، اللذين عاشا سويا على امتداد قرون من الزمن.

خرج الجزائرى حاملًا رسالتي لكنه لم يعد ولم أتبلّغ جوابًا، وتواصل القتال.

بقيت لي فرصة أخيرة. قررت إيفاد جعفر العسكري إلى حيفا ليلتحق بالأمير عادل أرسلان، الذي أوفدته قبل يومين ليقف على رأي القيادة الإنجليزية، ويعلمني على وجه السرعة بما يتبلّغه من آراء وأخبار.

آويت إلى مقصورتي منهكًا، قبيل منتصف الليل، بعد أن طلبت من الدكتور قدري موافاتي ليسعفني بما لديه من أدوية تخفف من آلامي. ولم تمر سوى دقائق حتى غرقت في النوم.

١٢

لم يمر وقت طويل على استيقاظي صباح اليوم التالي لوصولي إلى درعا، حين سمعت هدير طائرة سرعان ما علا ليعود فينخفض شيئًا فشيئًا. اقتربت من النافذة بحركة تلقائية وأبعدت الستارة، كانت الطائرة تبتعد عاقدة حلقة دائرية تضعها مجددًا باتجاه المحطة والقطار. راودتني مشاعر عديدة، وقفزت إلى ذهني للتو شائعات يوم أمس التي دارت حول نيّة الفرنسيين قصف القطار للتخلص منّي ومن قادة سوريا المتجمعين في هذه الرقعة الصغيرة من أرض حوران المنسية.

شعرت بنفسي تتحفز للقتال، وغمرت نفسي حماسة للمواجهة لم يتسنّ لي خوضها. أكملت ارتداء ملابسي العسكرية في الوقت الذي ابتعدت فيه الطائرة متحفزة للانقضاض مجددًا فوق المحطة والرصيف والقطار. ربطت حزام المسدس حول خصري، وحملتُ العصا القصيرة التي قدمها لي راسم سرادست يوم أمس. كان العشرات من الرجال ينتشرون فوق الرصيف وقد اتخذ بعضهم مواقع قتالية يحملون بنادقهم المصوبة نحو الطائرة التي أكملت دورتها الثالثة

لحظة خروجي من المقصورة. مشيت بخطى ثابتة بيتما أحاط بي عدد من الجنود والرجال واتجهت صوب طرف الرصيف حيث نصبت خيمتي يوم أمس.

بالرغم من الارتباك الذي أرخى بثقله فوق درعا هذا الصباح، فإن أحدًا من الرجال لم يفقد رشده، لم تطلق رصاصة ولم يصب أحد بالذعر. كان هدير الطائرة يتلاشى في الفضاء، فيما أسير فوق القصاصات الورقية التي رمتها. كان الهواء ما يزال يلاعب بعضها قبل أن ترتمي فوق الرصيف والحقول المحيطة والبلدة التي استيقظت وبدأ رجالها ونساؤها يتوافدون صوبنا. قال لي ساطع الحصري الذي كان يسير إلى جانبي: إنهم يطلبون رحيلنا من درعا! لم أعلق لكنني تابعت سيري حتى وصلت إلى الجهة الشمالية من المحطة. استدرت لأخاطب عشرات الرجال الذين كانوا يحيطون بي، قلت: لن يجرؤ أحد على إخراجنا، وهم أضعف من أن يفعلوا، ولن تخيفنا قنابلهم أو تهديداتهم.

علت الصيحات، نحن رجالك أبو غازي. فأثر هتافهم في نفسي. مضى وقت طويل لم أسمع بهذا الهتاف الذي طالما تردد أيام الثورة والحرب ولطالما سمعته في شوارع دمشق. كان الرجال بحاجة إلى كلمة تشجيع وكنت بحاجة إلى كلمات ترفع معنوياتي. رفعت يدي فهدأت أصواتهم، وتابعت: لن نقبل بعد اليوم أن يقولوا لنا ما الذي سنفعله. هذه بلادنا ولن نخرج منها إلا بإرادتنا.

جلست على الأرض، وجلس حولي الرجال وقد أفسحوا لبعض شيوخ العشائر ووجهاء البلدة الأمكنة بالقرب منّي. جاءوا يستفسرون، وقد علموا أن الفرنسيين يهددونهم إذا ما استمروا

في استضافتي. كانت جلستنا أشبه بتلك الحلقات التي كنا نعقدها في البوادي أيام الثورة. كنت أتكلم مستعينًا بالعصا القصيرة التي أضغط على طرفها بيدي لأبدد القلق الذي بدأ يتسرب إلى نفسي، قلت: إنهم يخشون وجودنا هنا، لأنني لا أزال الملك الشرعي لسوريا ولأنني لا أزال أقيم على جزء من أرض المملكة. يخافون من صمودنا بالرغم من آلاتهم العسكرية والجيوش التي أتوا بها من كل مكان لقتالنا.

عادت الهتافات والصيحات، التي شارك بها البدو من أبناء حوران. وقف خطيب من الأهالي يدعو إلى قتال الفرنسيين، وتلاحق المتكلمون والخطباء. فيما رحت أفكر بحقيقة وضعي والقيود التي تطوّقني.

يتكلمون عن القتال والتضحيات. لعلهم يظنون أنني أملك مستودعات من السلاح وصناديق من المال! لطالما نبهني أعواني من إهدار المال، وإنفاقه على غير المستحقين. لم أكن لأهتم بالمال. وكنت أعرف أن المترددين بحاجة إلى هباتي ليتناسوا ترددهم، أما البدو فلا بد من شراء خدماتهم بالليرات الذهبية.

أنفقت الكثير بغير حساب، ولطالما وجدت نفسي بحاجة إلى القليل من المال الذي لا أجده في جيبي. كان جيش الشمال يحصل على أكبر حصة من المساعدة الإنجليزية، الأمر الذي أثار نقمة أبي وحسد إخوتي. كنت أوزع كل ما يأتيني على التوايهة والرولا وأهل حوران ومن يقدم خدمة صغيرة أو كبيرة للثورة. وحين دخلنا دمشق ازدادت الأعباء: الخزينة فارغة، ونفقات الإدارة ورواتب

الجنود أكبر من طاقتنا، ومع ذلك كان عليّ أن أمد يد العون إلى الساسة وقادة الأحزاب والوجهاء لأحافظ على ولائهم، إضافة إلى مساعدة والدي في الحجاز، فثارت الهمسات وتناهت إلى أذني الاحتجاجات. جاءني رشيد رضا في الأسابيع الأخيرة ليقول لي بصراحته التي لم أستسغها أبدًا: إنك تخلط يا صاحب الجلالة بين جيبك الخاص وخزينة الدولة.

أدركت، حين جلست في صدر خيمتي، أستقبل رؤساء الوفود والعشائر، الذين اصطحبوا معهم الخطباء والشعراء، أنني لا أقدر أن أكون ملكًا مفلسًا، وأن أحدًا لن يقاتل مع قائد لا يملك السلاح. لعلهم لا يصدقون أنني أنفقت كل ما أملك وكل ما وصلني من المال. ولكنها الحقيقة التي يعرفها عدد قليل من أعواني والتي يجدر أن تبقى سرًّا ولو إلى حين.

كنت لا أزال مشغولًا باستقبال المتوافدين إلى خيمتي التي صارت قاعة استقبال اختلط فيها الفلاحون بالجنود والضباط والمشايخ، حين دخل الجابري ليبلغني برقية عاجلة وصلت لتوها من دمشق عبر أسلاك سكة الحديد، كان يهمس في أذني مضمون البرقية التي يقرأها في الورقة التي يمسكها بكلتا يديه: إن السلطة الفرنساوية أفادتنا أن يوضع «ترين» تحت أمر جلالتكم للسفر إلى الحجاز على الطريق الذي تختارونه من طريقي معان وحيفا، بدون توقف في درعا، فأسترحم من جلالتكم حفظًا لبلاد حوران من المصائب والخراب تعجيل حركة جلالتكم.

حملت البرقية وفي ذيلها توقيع رئيس الحكومة الدروبي الذي

عينته قبل يومين. طلبت إلى الجابري أن يرسل إليه جوابًا فوريًّا: إنني أقيم في جزء من البلاد التي بايعتني وأنا أحرص على إسعاد البلاد ورفع الضرر عن أبنائها.

لم تكن رسالة الدروبي ولا تهديد الفرنسيين ما دعاني إلى إطالة التفكير في الخطوة التالية التي يجب أن أختارها، ولكن الانتظار الأصعب من كل تهديد هو الذي كان يدفعني إلى التعجيل في اتخاذ القرار. طلبت إلى زيد والجابري والحصري موافاتي إلى المقصورة أول المساء، كانت آراؤهم متفهمة لحقيقة الموقف الذي يحاصرني، لن أعود إلى الحجاز أجرر الفشل والخيبة، ولا أقدر على البقاء في درعا محاصرًا بين الفرنسيين الذين سيزيدون ضغطهم في الأيام المقبلة، وبين عشائر درعا التي تطلب المال والسلاح لتحمي أبناءها وتحميني.

ليس أمامي سوى التوجه إلى أوروبا، سأقصد سويسرا لأعرض قضيتي على هيئة الأمم. لديّ الثقة بأنني قادر على مخاطبة ممثّلي الدول باسم العدالة. لديّ الثقة بأنني أقدر أن أخلق من العدم شيئًا لم يكن موجودًا. سأنتظر إشارة من عادل أرسلان قبل أن أغادر إلى حيفا غدًا أو بعد غد.



(١٣)

سرعان ما هبط الليل وحلّ السكون. وكان الإرهاق الذي اعترى الرجال من جرّاء وقائع الأيام السابقة قد ضاعفه سأمهم من رتابة الحياة في درعا. خلت المحطة من الحركة بعد أن رجع الأهالي إلى ديارهم وعاد الرجال إلى النادي العسكري حيث يبيتون، ليشغلوا وقتهم بتحضير العشاء وبعض الأحاديث والأخبار قبل أن يأووا إلى النوم. تسلّل الملل إلى نفسي وقد احتلّت الكآبة مقصورتي الصامتة وسرعان ما غرقت في النوم.

استيقظت على أصوات صراخ وضجيج. لم أستطع أن أتبين ما يدور في الخارج. نهضت من فراشي في الظلام وتحسّست مسدسي الذي وضعته على الطاولة إلى جانبي. سمعت طرقًا على الباب وصوت زيد الذي ارتفع يخاطبني. وحين فتحت دخل وخلفه عدد من الأشخاص عرفت منهم تحسين قدري مرافقي وراسم سرادست. قال زيد الذي لاحظت على وجهه علامات الغضب: لقد انتهى كلّ شيء وسيحاسب الفعلة وقد ألقينا القبض على الأشقياء وسينالون عقابهم.

لم يطل بي الأمر لأفهم بأن عددًا من أفراد البدو المسلّحين تسلّلوا إلى المحطة يريدون سرقة القطار ظنًّا منهم بأنه محمل بالذهب والمجوهرات. كان آخر أمر أتوقّعه هو أن أتعرّض للسلب في درعا.

حضر ثلاثة أو أربعة من المشايخ ومعهم نائب حوران في المؤتمر لتقديم الاعتذار. مرّت ساعة من أحاديث لم أقدر على متابعتها قبل أن يغادر الجميع وأعود إلى وحدتي. كانت أفكاري قد شردت بعيدًا ولم يعد بمقدوري أن أغفو، بقيت جالسًا في العتمة أشغل السكائر، بينما الحراس الذين تضاعف عددهم يحيطون بمقصورتي ساهرين أسمع همهماتهم ووقع أقدامهم بين الحين والآخر. كنت حزينًا، أشعر بالإهانة والغضب. لعن الله البدو وأخلاقهم كانوا يأتون لتقبيل يدي وأخذ أعطياتي، أما الآن فإنهم يأتون لسرقتي وقد هان عليهم ملكهم. لقد انتهى كل شيء وتلاشى آلاف الرجال الذين كانوا يندفعون للموت أمامي. لم يبق سوى الرحيل.

ذهبت أفكاري بعيدًا، إلى درعا التي كانت محطتنا الأخيرة قبل خطوتنا التالية التي قادتنا إلى النصر، في ذلك السباق الذي كان يحضّنا على أن نكون أول من يدخل دمشق. كان التنافس خفيًّا وقد شعر الإنكليز بالألم لأن العرب وصلوا إلى درعا قبلهم. دخلت إلى هذه المدينة فاستقبلتني فوضى عارمة إذ طاش سهم البدو الذين انقضوّا على البلدة يكسرون ويخلعون وينهبون كلّ ما تصل إليه أيديهم. حين دخلتها كانت قد أضحت خرابًا، أمرت بوقف كلّ أعمال الحرب، ولبثت منتظرًا ومترقبًا أخبار القتال على جبهة دمشق. مرّ وقت ثقيل قبل أن يصلنا النبأ: حرّرت دمشق وقد غادرها

آخر الأتراك. علا التصفيق والهتاف وأطلق الرصاص ابتهاجًا، أظهرت الفرح وأخفيت قلقي، كنت أخشى أن يكون الإنكليز قد سبقونا في الوصول.

جاءتني بعض الأخبار المطمئنة قبل نهاية ذلك النهار وقد أعلمت بأن الشريف ناصر قد دخل المدينة من جهتها الغربية، ووصل إلى قلبها حيث تمكن من الاتصال باللجنة العربية التي كانت تستعدّ منذ أشهر لاستقبال الجيش العربي. تدفّقت القوات عبر بوابة الله سالكة طريق الميدان وباب الجابية وصولًا إلى المرجة، وقد خرج آلاف من أبناء المدينة ليستقبلوا طلائع الجيش ومعهم مقاتلو الشعلان وأتباع عودة الذين كانوا بين أول الداخلين إلى دمشق.

قضيت الليل أرتب أمور الجيش وأهيئ الحكام الذين سيتولون الحكومات في الساحل إثر خروج الأتراك. كان أشدّ ما يشغل بالي هو السباق الذي عليّ أن أفوز به فيكون مندوبي أول الداخلين في كل مدينة يخليها الأتراك، لكن الأخبار الغامضة عادت تشغل بالي، وكان أسواء ما بلغني هو أن الأتراك قبل خروجهم سلّموا المدينة للأخوين الجزائريين اللذين رفعا العلم العربي باسم الملك حسين فوق دار البلدية. حسبت أن انقلابًا وقع. مرّت ساعات عصيبة لم تردني خلالها سوى نتف من الأخبار وكان أسوأها هو ما يصل أولًا، دبّ ذعر في المدينة حين تفشّى فيها الفلاحون والبدو ينهبون المحلات ويغيرون على الثكن ومخازن السلاح للاستيلاء عليها. وكادت مجزرة تطيح بكل جهودنا حين تواجه كل من الشعلان وعودة، وخلف كل واحد منهما مقاتلوه شاهرين الأسلحة، ولم يحسم الأمر إلا لورنس الذي وقف بينهما حين علا صراخهما أمام دار البلدية.

أمضيت المزيد من الوقت أنتظر الأخبار الواردة من دمشق. استطاع نوري السعيد أن يكافح الفوضى التي كادت تسيطر على المدينة. نصب مشنقة أمام دار البلدية ونشر قوات الجيش التي أعادت الهدوء والنظام بعد أن انسحب البدو والفلاحون من الشوارع.

حضر ناصر إلى دار البلدية وكان لورنس قد وصل لتوّه، وأعلنا باسمي تعيين شكري الأيوبي حاكمًا عسكريًّا ونوري السعيد قائدًا عامًا للجيش. وانسحب الجزائريان بينما أخذت أستعد للدخول إلى دمشق.

استعجلت خطواتي. حين بلغنا الكسوة طلبت إلى رستم حيدر الإسراع إلى دمشق وإبلاغ الشريف ناصر ليكون إلى جانبي ساعة وصولي عند دخولي المدينة. حين توقّف القطار في محطة القدم لم يكن ناصر قد وصل فمكثت مع حراسي منتظرًا يتآكلني القلق. كنت متهيبًا هذا الدخول إلى المدينة التي خرجت منها آخر مرة هاربًا من أسر جمال باشا، وقد ملأت خواطري خلال سنتين من عمر الثورة، عاصمة الدولة التي وعدنا بها أنفسنا، ها أنا أستعد لدخولها لأجعل من هذا اليوم صفحة من تاريخها لا تمحى.

لم يطل الوقت حتى وصل موكب الشريف ناصر يتبعه خمسمائة من الفرسان، وامتلأت المحطة بالمستقبلين، مئات من الجنود والهجانة والبدو، الآلاف من أبناء المدينة الذين حضروا فور انتشار الخبر. تبدد قلقي وذهب هدير الجموع بحذري ومخاوفي. كانوا يهزجون ويطلقون الهتافات ويتسابقون لتقبيل يدي. ركبت فرسًا

وسار ناصر فوق فرسه إلى جانبي. وأحاط بنا ألف وخمسمائة من الفرسان. سار الموكب وسط التهليل والتكابير، وقد رفعت الأعلام ونثرت الزهور. وحين دخلت المدينة لم أكن ألمح سوى البسط والسجاد المدلّى من النوافذ والشرفات. وآلاف الوجوه المطلّة تنشر الأرز وماء الورد والعطور. كان أكثر ما أثار دهشتي خلع النساء للحجاب والسير سافرات يطلقن الزغاريد والصرخات. شعرت بدموعي تنحدر على خدَّي. إنها لحظة الحرية. لحظة ستدون أسطرًا في كتاب التاريخ.

لم أتمكن من صعود درج دار الحكومة إلا بصعوبة. كان الناس بالآلاف، عمائم وطرابيش وعقالات وقبعات. مشهد فريد لا يغادر مخيلتي، كلما استعدته امتلأ رأسي بضجيج الهتافات والأهازيج ودوي التصفيق. كان الجميع هنا في هذه القاعة التي ضاقت بهم، القادة الذين حققوا النصر والثوار الذين انتظروا خفية في دمشق، الوجهاء الحذرون الذين لم يشاءوا أن يفوّتوا لحظة استقبالي، أولئك الذين حافظوا على ولائهم للأتراك حتى الساعة الأخيرة، والذين اتهموني بالخيانة وكتبوا ضدي المقالات، كانوا هنا. كانت لحظة فريدة من تاريخ الأمة، تختصر عمرًا بأكمله، رأيت بعيني ثمرة عملنا المحفوف بالمخاطر والمحاط بالمؤامرات والصعوبات، وأحسست بالفخر والانتصار.

كان لا بدّ أن أغادر القاعة لبعض الوقت. فقد أعلمت قبل وصولي إلى دار البلدية أن الجنرال اللنبي الذي وصل لتوه ينتظرني في فندق فكتوريا. لكنني آثرت أن أفتتح دخولي إلى دمشق بلقاء أهلها وقادتها. خرجت من القاعة بصعوبة وبقي الجميع فيها بانتظار

عودتي. واستلزم عبوري الساحة لبلوغ الجهة المقابلة حيث يقع مبنى الفندق نصف ساعة وسط الحشود التي كانت تعيق سيري. كنت في أشد حالات الاهتياج حين صعدت درجات الفندق حيث كان الجنرال اللنبي ينتظرني في قاعة الاستقبال.

لم أكن التقيت به من قبل، بالرغم من أنني عملت تحت إمرته كواحد من قادة جيوش الحلفاء خلال الخمسة عشر شهرًا الأخيرة. كان دويّ الهتافات في الخارج يؤازرني حين دخلت القاعة، حيث كان واقفًا ينتظرني مع قائد القوات الإنكليزية التي دخلت دمشق قبل يومين والجنرال كلايتون ونوري السعيد ولورنس الذي تقدم ليقوم بدور المترجم بيننا.

لعل عدوى الابتهاج التي تسمع أصداؤها في الخارج قد انتقلت إليه. وقد رأى وحده من بين قادة إنكلترة الكبار، حضور العروبة التي تجسدّت بشرًا ملئوا دمشق بشعاراتهم. كانت أمة بأكملها حاضرة في هذه اللحظة تعلن اعتزازها بالحرية واستقلالها.

لم يكن الوقت الذي جرى فيه لقاؤنا ليسمح بالدخول في عمق المسائل. هنأني بالنصر وشكرته على العون الذي لم يبخل بتقديمه لجيشنا. بدا لي اللنبي رجلًا عمليًّا مهتمًّا بسير المعارك التي ما زالت مستمرة في الشمال. قال كعسكري: إن سوريا ستخضع لشروط البلدان المفتوحة. وكقائد من قادة القوات الحليفة طلب إليّ أن أتسلّم حكم سوريا بانتظار ما سيقرّره مؤتمر الصلح بشأن المناطق التي ستخضع مؤقتًا لجيوش الحلفاء الفرنسية والإنكليزية.

عدت إلى دار البلدية، وكان استقبالًا ثانيًا. دوّت القاعة بالهتافات

والتصفيق عند دخولي. وكان وجهاء دمشق قد احتلّوا المقاعد الأمامية بانتظار عودتي. استمعت إلى الخطب، وقام المفتي باسم الجميع يبايعني وهو الذي أفتى بقتلي من قبل. وقفت أخطب طالبًا تضافر الجميع، لأن الحرب لم تنته بعد، ولأن تحقيق الاستقلال متوقف على اتحاد القلوب والتكاتف.

خرجت إلى دار محمود البارودي التي أعدّت لإقامتي. تناولت الغداء وسط الأحاديث التي كانت تثني عليّ وعلى والدي وتذكرني بالمهام الصعبة التي تنتظرني. عاد إليّ انشغال البال والقلق. لا بد من تحقيق أمرين: تعيين حاكم بيروت والساحل باسم الحكومة العربية ودخول الجيش العربي إلى حلب، وقبل كل شيء إزاحة غبار المعركة عن دمشق.

لم تكن مراسم الغداء قد انتهت حين دخل لورنس حائر النظرات، وعلامات الإنهاك تعلو وجهه الضامر. طلب إليّ أن أكلّمه على انفراد وسط دهشة الحضور، كانت كلماته قليلة ومختصرة. أخبرني أنه حصل على الإذن من الجنرال اللنبي بالعودة إلى دياره. قال وقد بذل جهده في انتقاء عبارته العربية: لقد انتهت مهمّتي بدخول جيش الشمال إلى دمشق. ولم يعد لي من دور أؤدّيه. مدّ يده مصافحًا قبل أن يسمع كلماتي فقد أراد الوداع مختصرًا، وأدّى لي التحية ثم استدار مسرعًا في الخروج.

لقد انتهت مغامرتنا. هكذا شعرت حين اختفى لورنس من أمامي. لقد انتهت الحرب أو أنها شارفت على الخاتمة. انتهى زمن الصحراء ونسف القطارات. وقد اختار اللحظة المناسبة للرحيل

والمغادرة، وأدركت في يقيني أن مهمتي قد انتهت هي الأخرى.
قررّت أن أرسل إلى والدي أعلمه بالنصر الذي حقّقناه وأخبره بأن جهودنا لم تذهب سدى، وأطلب إليه أن يرسل أخي عبد الله ليدير شئون مملكته، وأن يوافق على استقالتي لأرتاح.

(١٤)

صار الانتظار في درعا ضربًا من اليأس. ومع ذلك كنت لا أزال أنتظر إشارة تصلني من الرسولين اللذين بعثت بهما إلى حيفا، مما زاد في هواجسي حول نوايا الإنكليز. وزاد في قلقي أنني لم أتلق أي إشارة تنبئني بموقف والدي، ولم أكن لأجرؤ على أن أرسل من يعلمه بما جرى وبالأسباب التي دعتني إلى الخروج من دمشق. أمضيت اليوم الثالث من إقامتي في درعا متنقلًا بين مقصورتي والخيمة التي نصبتها فوق الرصيف لاستقبال الزائرين، وقد انتابتني كآبة كنت أجهد في إخفائها وتسلية نفسي بالأحاديث والأخبار التي يرويها زوّاري.

بات تسقّط أخبار ما يجري في دمشق شاغل الرجال يسألون عن رفاق انقطعت أخبارهم، عن المواقع التي احتّلها الفرنسيون وأحوال المدينة والحكومة التي أرسل رئيسها يوم أمس يطلب إليّ التعجيل بالرحيل. كنت مستعجلًا مغادرة درعا، ولكن الأخبار التي يحملها بعض الذين يأتون من دمشق، وبعض الفلاحين الذين يدخلون المدينة لبيع محاصيلهم، كانت تشغل فكري وتجعلني

أراجع قراري، وقد سألت نفسي مرات عديدة: هل الذهاب إلى أوروبا هو القرار الصائب أم البقاء في درعا والدفاع عن ملكي. وقد علمت أن الخطباء في المساجد في أول يوم جمعة مرّ على خروجي قد دعوا في خطبهم للسطان، ودعوا لي ولوالدي بالنصر. أثار الخبر في نفسي شجونًا حتى دمعت عيناي. وكانت أخبار أخرى تثير قلقي وحزني، فالفرنسيون لا يكفون عن ملاحقة الوطنيين بالرغم من خشيتهم دخول أحياء المدينة وحاراتها. وصباح هذا اليوم جاء من يخبر بأن مقهى الكمال في المرجة قد دهم مرات عديدة بعد أن أصبح مقرًّا لبث الدعاية ضد جيش الاحتلال.

جاءني نوري بالرجل الذي وصل لتوه من دمشق، هرع صوبي حين رآني وانحنى لتقبيل يدي، كانت مظاهر الإعياء بادية عليه. قال إنه واحد من المتطوعين الذين قاتلوا في ميسلون، وقد خشي أن يعرف الفرنسيون بأمره فبقي متخفيًا في أحياء دمشق، حتى غادرها أول أمس ليصل إلى درعا صباح هذا اليوم. كان يشرب الشاي الذي طلبته له حين رفع نظره صوبي ليسألني: يقولون في دمشق إن القتال سيتوقف لشهر ثم يعاود سيرته الضارية بعد ذلك، ويقولون إن جلالتكم ستختفي لمدة ثم تعود لتظهر من جديد لطرد الفرنسيين بعد قتال قصير، فهل هذا صحيح يا سيدي؟

بقيت صامتًا، وقد حرت فيما أقول. ما زالوا يظنون أنني أملك قدرات سرّية، أو أنني أجترح الصعاب والعجائب. ليتني أقدر على العودة إلى ملكي اليوم قبل الغد، لكنني لست مهديًّا، قلت في نفسي، لأغيب غيبة قصيرة ثم أعود إلى الظهور لأنشر العدل في الأرض.

بتّ نهاري حزينًا، أجهد في طرد اليأس من نفسي وفي شد عزائم الرجال ورفع معنوياتهم التي بدأت بالانهيار بفعل الانتظار وفقدان الأمل. ليست صعوبات العيش هي التي تؤرقهم، وقد اعتادوا على الصعاب وملازمة الظروف القاسية، ولكن التفكير بمصائرهم المبهمة هو الذي كان يشغل رءوسهم ويثقل على صدورهم. قرر الفلسطينيون العودة إلى ديارهم وقد أقلقتهم أخبار المواجهات مع اليهود في الأيام القليلة الماضية، وقد انشغل عزة دروزة مع رفيق التميمي وسائر الفلسطينيين المقيمين في النادي العسكري من أجل تشكيل كتائب لصد اعتداءات الصهاينة. ولم يتأخروا في العودة إلا بسبب تأخري في اتخاذ قراري بالبقاء أو المغادرة. أما العراقيون فيبحثون عن السبل التي تمكنهم من الوصول إلى بلادهم وقد صار دأبهم تسقّط الأخبار القليلة التي تردهم عن المواجهات مع الإنكليز، ويظهرون شوقهم للالتحاق بالثورة التي امتدت إلى سائر أنحاء العراق. أما السوريون الذين خرجوا معي فكانوا حائرين متردّدين في اختيار الجهة التي سيلجئون إليها، وقد أخذ القلق على عائلاتهم التي تركوها يحتل أفكارهم.

وكان أشد ما يقلقني سريان الهمسات حول مسئولية الهزيمة. لا أشك بأن الدروبي واليوسف كانا يستعجلان دخول الفرنسيين، وأن الألشي كان متواطئا ولكن الهمهمات بدأت تطال أقرب الناس إليّ، يتهمون الجابري بأنه حجب الوقائع عني، وحال بيني وبين الناس، ويغمزون من قناة نوري السعيد ويقولون إنه كان مهتمًّا بإخراج سيارة يوسف العظمة من دمشق أكثر من اهتمامه بمصير

الجنود. بتّ خائفًا من البقاء في درعا، فالانتظار سينشر البغضاء بين الرجال ويزيد من إحباطهم ويأسي.

دخلت مقصورتي عند العصر لأرتاح قليلًا وأخلو بنفسي وأفكاري. لقد انتهت ثورتنا وانهارت الدولة تحت مدافع الفرنسيين في ميسلون، لكنني لم أفقد الأمل، لا أقدر أن أفقد الأمل، فالعروبة التي صنعتها على شاكلتي لم تمت، ومهمتي لم تنته بعد.

كنت أحسب أن مهمتي اكتملت بتحقيق النصر والدخول إلى دمشق. أرسلت إلى والدي استقالتي وطلبت إيفاد عبد الله ليحل مكاني. لم يكن سوء التفاهم بيني وبينه السبب الوحيد الذي دفعني إلى طلب إعفائي من مهماتي، ففي قرارة نفسي كنت أستشعر الصعوبات بعد أن برزت نوايا الحلفاء في تقاسم البلاد. بعثت أعلمه بأن مندوبي الحكومة العربية قد استقبلوا بتظاهرات الترحيب في كل مدن سوريا من الأهالي الذين أعلنوا ولاءهم للملكة العربية ورفعوا راياتها في صيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية. لكن الجنرال اللنبي أمر بإنزال العلم الذي رفعته فاطمة شقيقة الشهيدين المحمصاني فوق دار البلدية في بيروت، بعد أن عين لها حاكمًا فرنسيًّا، الأمر الذي أثار غضبي وحنقي وطلب إعفائي من مهمتي.

طلب اللنبي من والدي رفض استقالتي وبعث إليّ يطيّب خاطري متذرعًا بأن الإجراءات العسكرية تدابير مؤقتة بانتظار مؤتمر الصلح وأن بقائي ضروري لتسيير شئون البلاد. لكن والدي أبدى رغبته بالتنازل عن الملك والانسحاب من العمل في القضية العربية، ولم يكن حاله بأفضل من حالي. فحين أعلن رغبته بالقدوم إلى سوريا

بعد أن دخلها الجيش العربي نصحته الخارجية الإنكليزية بالتريث لأن البلاد تحكمها إدارة عسكرية، وحين علم أن الراية أنزلت عن سارية دار البلدية في بيروت أرسل إلى المقيم الإنكليزي في جدة يقول إن آماله تحطمت بعد المعاملة المهينة لرايتنا مما سيؤدي إلى سقوط هيبتنا في أعين الشعب وأعلن رغبته بالتنحي، لكنهم أكدوا له ضرورة بقائه لأن قيادته من لوازم النهضة العربية في هذه الآونة.

قربتني الصعوبات التي أحاطت بي من كل جانب من والدي. كان عليّ أن أنفض غبار الحرب عن المدينة، أن أرفع الأنقاض من الشوارع وأمد المستشفيات بالوقود. رأيت بشاعة الحرب التي جعلت من بهاء دمشق خرابًا خلفه الأتراك وراءهم، أحرقوا الثكنات والمعدات وتركوا البلاد مدمرة. أدركت أن لحظة النصر هي مناسبة للتسامح وليس للانتقام فدعوت الجميع إلى الوحدة وإنقاذ البلاد. كان النصر قد شحن الأهالي والجنود والقادة بهمة العمل، فيما أتابع أخبار تقدم الجيش العربي من الشمال متيقنًا من الآمال التي عقدناها ومستبشرًا بالمستقبل الذي ظننت أنه سيكون أفضل من الماضي.

واصل الجيش العربي تقدمه محررًا المدن الواقعة إلى الشمال من دمشق، دخل حمص وحماة وتجاوز حلب حيث نشبت المعارك الأخيرة التي يقودها الشريف ناصر وجعفر العسكري ونوري السعيد. أطلق ناصر الرصاصة الأخيرة معلنًا نهاية الحرب، وهو الذي كان أطلق أول رصاصة في أول معركة خاضتها الثورة في المدينة. بين إعلان الثورة ونهاية الحرب خاض ناصر خمسين معركة جعلته رمزًا للمقاتلين الذين صنعوا مجد الثورة وأعلوا اسم الهاشميين وكرسوا دورهم في صناعة النصر.

كان النصر من صنع قادة حجازيين وعراقيين وسوريين، جاهدوا من أجل تحرير البلاد واستقلالها. وإذ بلغ الجيش حدود المملكة في الشمال، فقد أعلن بذلك حقه في السيادة على بلاده. كنت أستعجل زيارتي للمدن التي باتت سيدة نفسها، أريد الوصول إلى حلب لأجابه دعايات الأتراك والسموم التي يبثّها الفرنسيون لإثارة الفتن بين أهلها.

في كل مكان وصلتُ إليه كانت الجموع من الأهالي تخرج لاستقبالي بالعراضات والتظاهرات والأهازيج والهتافات، يعلنون حريتهم وتوقهم إلى الاستقلال. كنت أراقب من نافذة القطار الذي نقلني من مدينة إلى أخرى حاجة البلاد إلى كل مستلزمات النهضة، أراقب تلك المساحات من الأراضي التي تحتاج إلى ماء يرويها وفلاحين يشقون تربتها. في كل مكان وصلت إليه دعوت الأهالي إلى إنشاء الجمعيات وبناء المدارس والمستشفيات، وكنت ألقى آذانًا تسمع، إذا لم نحقق الآمال التي رسمناها تضيع جهودنا كأنها لم تكن.

كانت حلب مقصدي، خرج الأهالي لاستقبالي كما فعل أهل دمشق من قبل. نزلتُ في فندق البارون وكان مصطفى كمال آخر من نزل فيه من قادة الأتراك قبل جلائهم منذ أسابيع قليلة. اجتمعت بقادة الجيش وعيّنت لحلب حاكمها، وفي اليوم التالي توجهت إلى النادي العربي، فهبت المدينة لاستقبالي وسماع كلماتي: دعوت إلى الوحدة بين الجميع فلا فرق بين عربي وآخر، أمة واحدة ولكل إقليم ما يناسبه. نجحت في مهمتي وكسبتُ أهل حلب إلى جانبي.

ما كدت أنهي زيارتي إلى حلب حتى وصلتني واحدة من البرقيات التي كان يلاحقني بها والدي. طلب إليّ الإسراع في السفر إلى أوروبا لتمثيل العرب في مؤتمر الصلح: «حليفتنا الوفية بريطانيا العظمى ترغب بحضورك نائبًا عن مصالح العرب، وحيث رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في أساساتنا السياسية، فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لعظمائها ونوابها الأماجد».

تركت رسالته في نفسي مشاعر متناقضة، حسبتُ أن انعقاد مؤتمر الصلح سيعجل في بلوغنا غاياتنا، ولكني توجست الخشية من رحلتي لأنني لم أكن أملك الوثائق التي أعتمد عليها، ولأنني لم أعد أثق بالإنكليز، فهل وعودهم سياسة أم حقيقة؟ وحين أرسلتُ إلى والدي أعتذر عن القيام بالمهمة، استهون الأمر وبعث إليّ يقول... كل ما تحتاج إليه محفوظ لدى الإنكليز، وليس عليك سوى طلب الاطلاع على الوثائق المتبادلة بيننا وبينهم. لم يكن والدي ليطلعنا على تلك المراسلات وما تتضمنه من عهود ووعود كأنها أسرار تخصه وحده، كأن الثورة العربية وآمالها ملك صناديقه المغلقة.

غادرت حلب عاقدًا النية على متابعة جولتي في الساحل. سلكتُ طريق حمص ومنها إلى تلكلخ التي هبّ أهلها من الدنادشة لاستقبالي وحيث كان أبناء طرابلس بانتظاري، رافقوني وصولًا إلى مدينتهم التي خرج أهلها للاحتفاء بوصولي بالرغم من الفرنسيين الذين أمروا بمنع التظاهر. مكثت يومًا وليلة قبل أن أتابع طريقي إلى بيروت حيث كان الآلاف من أبنائها ينتظرون عند مشارفها، حملوا سيارتي ورفعوا اليافطات وأطلقوا الهتافات: لا نرضى

غيرك سلطانًا. أثار وصولي استياء الفرنسيين الذين أرغموا على استقبالي. وشعرت أنني حظيت بتفويض أهل سوريا أحمله معي إلى مؤتمر الصلح.

عدتُ إلى دمشق لليلة واحدة، عيّنت أخي زيدًا نائبًا عني خلال غيابي، وفي الصباح التالي اصطحبت معي نوري السعيد وأحمد قدري وفايز الغصين وأبرقت إلى رستم حيدر أن يستعد للقائي في باريس ومضيت إلى بيروت لأستقل الطراد الإنكليزي الذي كان بانتظاري.

(١٥)

وصلتني مساء اليوم الثالث من إقامتي في درعا برقية من عادل أرسلان الذي كنتُ أوفدته إلى حيفا يوم انتقالي إلى الكسوة. كنتُ أنتظر الرسالة، بل إن وصولها بات الشيء الوحيد الذي أنتظره في درعا، أخبرني أن المندوب السامي البريطاني لا يمانع في حضوري إلى فلسطين، وإن كان يرى أن أتوجه إلى شرق الأردن أو الحجاز في الوقت الحالي.

لن أذهب إلى الحجاز ولن أقيم في شرق الأردن، سأغادر صباح الغد إلى حيفا ومن هناك أدبر أمر سفري إلى أوروبا وليكن بعدها ما يكون.

صارت إقامتي في درعا أمرًا لا يُطاق بعد أن ضيّقت حكومة دمشق الحصار عليّ، بثّت الجواسيس الذين يتقصون حركات الرجال، ونشرت عملاءها يطلقون الإشاعات ويحرضون الأهالي ضدي ويمنعونهم من تزويدنا بما نحتاجه. لم تكن تلك الصعوبات

لترغمني لو أنني قررت البقاء في درعا، لكنني كنتُ مقتنعًا بذهابي إلى أوروبا حيث تتقرر أمور السياسة وتُرسم مصائر الدول.

لم أتخاذل، ولم أتبدل كما يقولون، لعلّي تعلمت أشياء لم أكن أعرفها، ولكنني يائس من إصلاح الأمور ومن إعادة الكرة من جديد. يقولون إن المُلك غيّرني وهم يعلمون بأنني لا أتمسك بمُلك لم أطلبه، لكنني خبرت السياسة والرجال، وأدركت أن الأمة التي لا تُجمع على رأي لا يمكنها أن تمسك زمام أمورها بيدها.

أمضيت الوقت المتبقي أرتب أمور سفري، دبّت الحياة في المحطة وفي النادي العسكري وقد بدأ الرجال يحزمون أمتعتهم للسفر. أمرت بأن يتهيأ الهجانة والحجازيون من أشراف ونساء للعودة إلى الحجاز. كانت تلك واحدة من لحظات الفراق الصعبة التي مررت بها في حياتي حين عانقت مرزوق الكحيمي الذي أجهش بالبكاء. شددت على يده وربتّ كتفه حين انحنى يقبّل يدي. لم أكن أتخيّل أن يأتي يوم أضطر إلى وداعه، كان معي في كل اللحظات منذ بداية الثورة يرافقني حيث توجهت وأينما حللت. كان مثل ظلي يحرسني ويسهر على راحتي. صافحت الشريف ناصر وعانقته ووعدني أن يكون معي عند عودتي من سفري.

بتُّ ليلتي الأخيرة في درعا مهمومًا مفكرًا في حالتي التي تستدعي نظرات الشفقة من أقرب أعواني إليّ. كنتُ أمنّي النفس بالسفر إلى أوروبا، كي أجد في عواصمها من يستمع إلى حقي وإلى شكواي، ولكني أعرف في قرارة نفسي أني لا أقدر أن أدافع عن مُلك لم يعترف به الفرنسيون ولم يقرني عليه الإنكليز. كنتُ

في أسفاري السابقة أذهب إلى أوروبا مفوضًا من الأمة مدعومًا من أبنائها، أما اليوم فإني أعزل من كل تفويض ومجرّد من كل قوة، أشبه بالمنفي الذي يحمل على كاهله ملكًا مضيعًا، لم أقدر على حماية من عبث المتشددين والمتهورين وطمع الأعداء.

كنت أفكر بأوروبا، أفكر بما تعلمته من إقامتي في عواصمها وتجوالي في بلدانها. لعلها بدّلتني وغيرتني، حين ذهب ساستُها بعزيمتي وأرغموني على التنازل تلو التنازل، أرهقوني بالانتظار وأغروني بالنساء. كان يجدر بي أن أفعل ما فعله مصطفى كمال الذي أدار ظهره للأوروبيين ومؤتمراتهم وسياساتهم، أن أبقى في دياري أستجمع قوتي وأستنهض شعبي، بدل أن أضيع الوقت في مفاوضات لم تحقق آمالي ولم ترض شعبي.

مضيتُ إلى أوروبا في زيارتي الأولى مبلبل الأفكار. قضيت أيام السفر فوق الطراد الذي عبر بي البحر مع أعضاء وفدي، والقلق يساورني مما أنا مقدم عليه والخوف مما ينتظرني. لم يكن قلقي في غير موضعه، فقد أبلغت قبل وصولي إلى مرفأ مرسيليا أنني سأستقبل كابن ملك حليف وليس كممثل للعرب في مؤتمر الصلح، وفهمت أن الفرنسيين لن يسهلوا أمري ولم أشك لحظة بأن مهمتي ستكون شاقة وصعبة.

قبل أن تطأ قدماي أرض المرفأ، لمحت لورنس الذي قدم ليكون في استقبالي. عرفته من الكوفية والعقال وقد أهديتهما له وكنّا لا نزال في ينبع في الأشهر الأولى من الثورة. اعتبرتُ إشارته بمثابة تحية يوجّهها إليّ، أراحني حضوره وأزال من نفسي بعض اضطرابها.

وخلال رحلتنا من مرسيليا إلى ليون أخبرني عن المساعي التي بذلها لأكون أنا دون غيري ممثلًا للعرب في مؤتمر الصلح وسعيه لإقناع والدي بذلك. وفهمت أن حكومته تعمل لإقناع الفرنسيين بقبول تمثيلي في المؤتمر.

لكن حضور لورنس على تلك الهيئة أثار حفيظة الفرنسيين، وهو الذي لا يوفر فرصة لإظهار عدائه لهم. كانت مهمته يوم وصولي قصيرة، أبلغه الفرنسيون خلالها أنه غير مرغوب به وطلبوا منه مغادرة فرنسا، فلم يكن منه إلا أن أعاد الأوسمة التي سبق أن منحوه إياها ورجع إلى لندن في المساء.

أظهر الفرنسيون لباقة في استقبالي دون الاعتراف بمهمتي. دعوني لزيارة ميادين القتال كقائد من قواد الحرب، وحين وصلت إلى باريس أفردوا لي جناحًا في فندق الكونتيننتال، وفي اليوم التالي رتبوا لي لقاءً مع رئيس الجمهورية.

كانوا يريدون كسب ودّي، وكنت أجهد للكشف عن نواياهم واكتشاف هذه البلاد التي أزورها للمرة الأولى.

صدمتني باريس في أول أيام وصولي إليها. شعرت بالغربة والوحشة، حين دعيت إلى حفلة في أحد المنتزهات. أحسستُ بوحدتي مع كوفيتي وعباءتي، والأنظار المستغربة تتفرس بي. لم أكن أعرف أحدًا من هؤلاء الناس المحتشدين ففكرت في سرّي أن أعود إلى بلادي.

قررت أن أغادر إلى لندن، فموعد افتتاح المؤتمر سيتأخر، وقد وجدتها مناسبة لألتقي ساسة الإنكليز وأتعرف إليهم. لقيت عند

وصولي كل حفاوة؛ جاء لورنس إلى مقر إقامتي في فندق الكارلتون ليعلمني بأن الملك سيستقبلني في اليوم التالي. وأتى من يرافقني إلى قصر باكنغهام، فكان الاستقبال يفوق تصوري وقد تسابق الأمراء ورجال الدولة لتحيتي. حسبتُ أن الحفارة تُعادل تقديرهم للعرب، وحين التقيت بوزير الخارجية اللورد كورزن تيقنت من أن الأمور أشدّ تعقيدًا، وأن السياسة بين الأمم لا تبنى على الصداقات.

كنت أكتشف سياسة الدول وأستكشف سر عظمة الإنكليز الذين استطاعوا أن ينتشروا في جهات الأرض، هل تكمن قوتهم في انصياعهم للنظام فيقوم كلٌ بدوره لا يتعداه، أم في خضوعهم لسياسة دولتهم فلا يتأخر كبير عن إرسال ابنه الوحيد إلى ساحات القتال للدفاع عن بلاده؟ أم أن قوتهم تابعة لصناعتهم التي تنفث دخان المعامل لتنتج السلع التي توزعها السفن في أنحاء العالم؟ كان العجب يأخذني خلال تجوالي في البلاد الإنكليزية التي يغطيها اخضرار المزارع، كيف يمكنها أن تنجب المقاتلين لتنشرهم في بقاع العالم البعيدة ليحرسوا مصالحها ويصنعوا قوتها؟! وكنت أعجب لهذه الأمة التي يجهل أغلب أبنائها كل شيء عن العرب، كأنهم أوكلوا أمر أمتنا لنفر من الناس وثقوا بهم وهم المولجون بشئوننا.

لم يكن للعرب أي حضور في أوروبا التي تجهل كل شيء عنهم سوى الأساطير القديمة والأخبار الغريبة، تأتي السيدة من الإنكليزيات لتسأل عن قصور هارون الرشيد في بغداد ومن الذي يسكنها اليوم، أما الرجال فيدارون جهلهم بالحديث عن بعض الأخبار التي قرءوها في الجرائد. لكن ما يدهشني أن أولئك القابعين في وزارة الخارجية يعرفون كل شاردة وواردة، تصلهم التقارير من

رجالهم المنتشرين في كل أصقاع العالم يومًا بيوم. يعرفون ما جرى اليوم في دمشق أو بيروت كأنهم يعيشون هناك.

عدت إلى باريس وقد اقترب موعد افتتاح المؤتمر. كان عمل كبير ينتظرني، من تحضير المذكرات إلى مقابلة السياسيين والمسئولين. قابلت رئيس الحكومة العجوز كليمنصو وقدرت حكمته، وعدني أن يساعد العرب فخرجت من لقائه فرحًا. كان صريحًا ومباشرًا يكلمني وهو ينظر إلى وجهي على عكس الإنكليزي الذي لا يقول لك الأمر إلا تلميحًا ولا يظهر غير الحذر والتحفظ. الفرنسيون يقولون ما يريدونه في الشارع والمسرح، نساؤهم متحررات ورجالهم حريصون على إبداء الرأي ولو على حساب مصالحهم الخاصة. قيل لي إن الثورة قد بدلتهم وهم ما زالوا منقسمين إلى أحزاب متنافرة يصل صدى تناحرها إلى الشارع وعامة الناس.

في كل مكان حللت به كنت ألفت الأنظار التي لا تخفي دهشتها كأنني خارج لتوّي من ألف ليلة وليلة التي لا يعرفون غيرها عن العرب. شعرتُ أن حضوري كان لازمًا، في الاجتماعات التي لا تنتهي مع السياسيين والصحافيين. كنت أضطر مرة بعد مرة إلى شرح قضية العرب ومطالبهم في الوحدة والاستقلال بعد أن أثبتوا جدارتهم في ميادين القتال. كنت أجد آذانًا صاغية ومتفهمة من رجال الفكر وبعض رجال الصحافة لكنني لم أسمع من السياسيين والدبلوماسيين غير كلمات الانتداب والوصاية ومصالح فرنسا في سوريا.

جاء يوم المؤتمر وقد ازداد قلقي واضطرابي. دخلت القاعة التي لم أر مثلها في حياتي حتى إستامبول حيث كان والدي يصطحبني مع

إخوتي إلى قصر يلدز لتهنئة السلطان بالعيد. امتلأت القاعة برؤساء الدول والوزراء والمندوبين الذين سيقررون مصائر الأمم والدول. شعرت بضآلتي وقد لفتت كوفيتي انتباه الحضور وأنظارهم فازداد ارتباكي وتفاقم شعوري بوحدتي. خيّم الصمت حين أخذ الرئيس من منصته يلقي كلمات الترحيب، كنت أنظر إلى الوجوه وتتيه أفكاري في الخطب التي لم أفهم من لغاتها سوى النذر اليسير.

كنت لا أزال أضع آمالي بالمبادئ التي أعلنها الرئيس الأميركي والتي عُرفت باسمه. لقد شغل الجميع منذ أن وصل إلى باريس. هذا الرجل الكبير كما يوصف هنا يحمل جسدًا نحيلًا ومريضًا، يجلس أمامي في هذه القاعة وقد أعطى انتباهه للكلمات التي تُلقى كأنه تلميذ في مدرسة.

انتهت جلسة الافتتاح وخرجت منها مرهقًا. لكن الحضور المسحور بقيافتي تابعني بنظراته، وتقدّم البعض لمصافحتي ومحادثتي. كانت النساء أشد اهتمامًا بي، تقدمت السيدة ويلسون نحوي، صافحتني وقالت لي إنني أشبه المسيح، شعرت بالخجل والارتباك ولم تسعفني الكلمات في إجابتها، قلت لها إننا نعلق على المبادئ التي أعلنها الرئيس ويلسون آمالًا كبيرة فوعدتني أن تحدثه عن قضيتنا. مدام شانيل كانت حاضرة وهي سيدة مرموقة في باريس وشديدة الحماسة لي، كانت تقدم لي السيدات اللواتي أردن مصافحتي وأخذ الرسوم الفوتوغرافية برفقتي. نساء كثيرات يحضرن في كل الأمكنة، في الشارع والمقاهي والمسارح والمحافل السياسية لا يمتنعن عن إبداء رغباتهن وآرائهن. قيل لي إن الفرنسية

أخبر النساء في شئون الحب والأناقة. والحق أن بعض أعواني أخبر بشئون النساء منهم بالسياسة.

عدت إلى مكان إقامتي في الشانزليزيه الذي يعج بالمتنزهين بالرغم من برودة الطقس، كأن الفرنسيين يريدون أن يتمتعوا بالنصر والسلام بعد سنوات الحرب، فهم يطيلون أوقات مرحهم ولهوهم. كانت خواطري مهتاجة بعد نهار حافل. تبادلت مع أعواني في بعض المذكرات والأوراق واستأذنت أريد أن آوي إلى غرفتي لأراجع بعض المسائل وأخط بعض الأفكار التي سأوردها في خطابي الذي سألقيه في المؤتمر. جاءني بعد نحو الساعة تحسين قدري ليخبرني بأن سيدة تطلب لقائي! استغربت الأمر، وحين دخلت ذكرتني بأنها صافحتني خلال النهار عند خروجنا من قاعة المؤتمر. كانت تحفظ بعض العبارات العربية وفهمت أنها زوجة ضابط خدم في الشرق وقد أتيحت لها فرصة زيارة القاهرة والقدس قبل اندلاع الحرب. لم أستطع أن أحدد عمرها، لعلها الثلاثين أو الأربعين. جلست على حافة السرير، وفهمت من نظراتها وعباراتها أنها معجبة بي، وكنت من جهتي أغالب ارتباكي. لا أدري حقيقة من الذي أرسلها، الفرنسيون أم الإنكليز، أو أن إعجابها هو الذي أتى بها. ومع ذلك فقد حاولت أن أكون حريصًا ولم أتكلم في السياسة، ولم أمض ليلتي معها في المناقشات.

بدأت أشعر بالإرهاق والتعب بعد مرور أكثر من شهرين على مغادرتي البلاد، أتعبتني اللقاءات والاجتماعات والاحتفالات التي أدعى إليها، كما أتعبني الانتظار. كانت أخبار سوريا التي تركت فيها زيدا اليافع تزيد من اضطراب أفكاري التي تغرق في الهموم إثر كل

جلسة مفاوضات، الخارجية الفرنسية تفاوضني حول دور فرنسا في مستقبل سوريا، وهم مهتمون بشأن لبنان، ولورنس يريد إقناعي بترك الكلام عن فلسطين، عوني عبد الهادي يقول لي إن لورنس صهيوني، وأنا متمسك باستقلال الأمة العربية ويزداد شعوري بوحدتي وغربتي.

جاء موعد الجلسة الثانية، أبلغت بأن المؤتمر سيستمع إليّ في اليوم التالي، فأمضيت الوقت مع أعواني نضع الأفكار الأخيرة للمذكرة التي سألقيها أمام المؤتمر. كلفت رستم حيدر أن يكتب النص الأخير، فخرج إلى غرفته وبقيت وحدي ساهرًا. لم أستطع النوم تلك الليلة وفي الصباح طلبت إلى حيدر أن يوافيني إلى جناحي ليقرأ عليّ ما أنجزه. طلبتُ بعض التعديلات قبل أن يحضر لورنس الذي قرأ الخطاب، وهو الذي سيتولى الترجمة إلى الإنكليزية أمام المندوبين.

دخلت القاعة قبل موعد الجلسة بعشرين دقيقة، وقد مشى خلفي أعضاء وفدي. كنت في غاية الاضطراب حين طالعتني وجوه أعضاء المؤتمر، قدمني كليمنصو إلى المندوبين فصافحتهم قبل أن أتوجه إلى المكان المخصص لي، طلب إليّ التريث ثم أعطاني الكلام، بدأت القراءة بالعربية التي أصغى إليها جميع الحضور، تلوت بضع عبارات وتوقفت لأتيح للورنس أن ينقل كلامي إلى الإنكليزية، وكان إلى جانب كليمنصو من يترجم له إلى الفرنسية، كررت الأمر بضع مرات قبل أن أضيق ذرعًا، استأذنت بتلاوة كلمتي دفعة واحدة ليتولى لورنس ترجمتها كاملة. حين أخذ دوره في الترجمة كنت

أنظر إلى الوجوه؛ ويلسون يهز رأسه موافقًا ولويد جورج يبتسم أما كليمنصو فكان يستمع مقطبًا حاجبيه الكثيفين.

ظننت أن الأمر انتهى عند هذا الحد، فهممت بالخروج وقد شعرت بالضيق، لكن كليمنصو الذي يترأس الجلسة طلب مني البقاء في القاعة لأردّ على الأسئلة. سألني ويلسون عن الوصاية فقلت إننا نطلب الاستقلال، وتساءل لويد جورج عن أعمال العرب في الحرب، فأسهبت في الشرح ووجدتها فرصة لأتحدث عن تمدن العرب حين كانت أوروبا لا تزال في ظلام تأخرها. لحسن الحظ لاقى خطابي كما أجوبتي استحسان الحاضرين.

حضر الكثيرون للقائي في مقر إمامتي ورتبت لي لقاءات مع رجال فكر وسياسة. كنت في حركة دائمة أريد أن أتعرف إلى رجال الدول لتوطيد العلاقات معهم وكان الفرنسيون الذين يرهقونني بالمباحثات في النهار يرتبون لي الدعوات إلى الحفلات والمسارح في الأمسيات، كانت تلك مناسبات لكي أرتاح. كنت أكتشف هذه المدنية، ليس في باريس فقط ولكن في زياراتي إلى إيطاليا وألمانيا. حين زرت ألمانيا اكتشفت تفوق الجرمان على سائر الأوروبيين، لم أرَ في حياتي بلدًا عامرًا مثل بلادهم. كان بلفور على حق حين قال للورنس إنه يخشى من زيارتي إلى ألمانيا فأعود وقد فقدت إعجابي ببلاد الإنكليز. لا بد للعرب أن يأخذوا من هذا التمدن ويتعلموا منه، هذا ما قاله لي أناتول فرانس الذي زارني مع زوجته، على العرب أن يستفيدوا من تقدّم الغرب وأن يحتفظوا في ذات الوقت بعاداتهم.

زارني هذا الرجل الكبير وهو من مشاهير الفرنسيين يحترمه كبارهم وصغارهم. أخبرني أنه زار دمشق مرة وأعجبه الخط العربي. سألني عن التصوير فقلت له إن الأسباب التي دعت إلى منعه قد زالت اليوم، أعجبه اجتهادي. بادلته زيارة بزيارة وحملت إليه الهدايا، أظن أنه سيقول كلامًا طيبًا لدى كليمنصو عني.

طالت إقامتي وما زلت أواصل الاجتماعات مع الفرنسيين، حضرت المس بيل من العراق وقد مرت خلال سفرها في دمشق وأخبرت عن سوء الأحوال في سوريا؛ الإدارة سائبة والمعيشة صعبة بسبب الاحتكار والخدمات متعثرة. كدّرني كلامها بعد أن نقله إليّ رستم حيدر الذي أخبرني بأن المس بيل نصحت محدثيها من أعضاء وفدي بأن نتفاهم مع الفرنسيين، لعلها على حق في هذه المسألة.

أفكر بأن أمنح الفرنسيين بعض الامتيازات في سوريا حتى نصل إلى اتفاق. صارت أفكاري مبلبلة فالجنرال اللنبي بعث إليّ ينصحني بالعودة إلى سوريا لأن وجودي فيها أوفق في الوقت الحاضر. قررت العودة فقد باتت الأوضاع تنذر بالخطر الشديد، والخواطر هائجة ضد الفرنسيين والصهاينة. لكنني اضطررت إلى تأخير السفر بعد أن حدد كليمنصو موعدًا لاستقبالي.

قال لي: إن فرنسا صديقة لسوريا وليس لها مطمع استعماري وأريد منك يا سمو الأمير أن تعلم أني عدو الاستعمار وقد حاربته خمسين سنة، أريد منك أن تضع يدي بيدك لخدمة سوريا.

أجبته: عدني يا سعادة الرئيس أن تبقى رئيسًا للوزراء إلى الأبد وأنا أمدّ يدي في الحال وأسير معك دون شرط.

واصلت المفاوضات سيرها، فوعدوني بتلبية مطالبي ووعدتهم بالاعتراف بمصالحهم. بعث إليّ كليمنصو كتابًا أبلغني فيه أن فرنسا ستعترف باستقلال سوريا وستمد يد المساعدة لنا، أردت أن أرسل له جوابًا أضمنه شكري وأقرّ فيه بأن سوريا ستطلبها من فرنسا حين تحتاجها. لكن الدكتور قدري قال إن هذه الورقة تعترف لفرنسا بالوصاية. غضبت من كلامه، لكن عوني ورستم كانا من رأيه، فاكتفيت بكتاب شكر. ذهبت لوداع كليمنصو ووعدته أن أعمل جهدي من أجل الوصول إلى اتفاق بين سوريا وفرنسا وعدت إلى البلاد فلم تعد عودتي تحتمل التأخير.

(١٦)

لم أغادر درعا قبل أن أتلقى طعنة أخرى في الظهر. كنت في الخيمة التي نصبتُها عند رصيف المحطة أستقبل الوفود التي جاءت لوداعي من قرى حوران حين جاء تحسين قدري يهمس في أذني. نهضت معتذرًا من زواري وتوجهت إلى مقصورتي في القطار حيث كان أخي زيد في انتظاري، أخبرني أن إسماعيل الصفّار قائد درعا العسكري يرفض تزويدنا بالوقود الذي أودعناه في خزانات الثكنة يوم وصولنا إلى درعا مدعيًا أنه ملك الحكومة. تألمت في داخلي وقد حزّ في نفسي أن يتنكر الصفّار لي وقد سبق أن عينته في منصبه. أردت الحصول على الوقود مهما كلف الثمن. طلبت من الضابط العمري أن يرغم الصفّار على التراجع، وأخبرت مشايخ عقيل الحاضرين لوداعي بالأمر فتهيئوا لمؤازرتي وأرسلوا رجالهم إلى الثكنة التي وصلها الضابط العمري مسرعًا وقد جهز مسدسه، دخل مكتب الصفّار وقال دون أن يرمي سلامًا أو يلقي تحية:

ـ الوقود في المستودع يخصّ الملك.

فأجابه:

ـ أنا لا أعترف بالملك.

تقدم العمري صوبه مهددًا:

ـ لكني أعترف بالملك وسأحصل على الوقود بالقوة.

فما كان من الصفار إلا أن تراجع وقال: ستأخذ الوقود على مسئوليتك.

أمضيت ما تبقّى لي من ساعات أخيرة في درعا حزينًا مكتئبًا، ليس لأن الذين كانوا يأتون إليّ وينحنون لتقبيل يدي يتساقطون ويتنكرون لي، ولكن لإحساسي بأن خروجي من درعا سيعني مغادرتي لأرض سوريا، كنت أتألم في داخلي بسبب كل ما عانيته في الأسابيع الأخيرة. لقد فكر أقرب الناس إليّ بالانقلاب ضدي وسعى بعضهم إلى التخلص منّي وحرضوا العامة لقلب حكومتي. كنت أشعر بالخوف من المجهول الذي ينتظرني. سأذهب إلى حيفا ومنها سأغادر إلى أوروبا. ليس لدي سوى أمل ضئيل بالفوز، وإلا فإني سأضيع تمامًا ويتنكر لي الجميع.

كان الوداع عند رصيف المحطة في درعا في أول يوم من شهر آب/ أغسطس صامتًا وحزينًا. حضر عدد من وجهاء حوران وشيوخ عشائرها، وكان ثمة فلاحون ينظرون بفضول إلى الوداع الذي يجري بغير مراسم. شعرت لحظة كنت أصافح الرجال وأشدّ على أيديهم وأربتُ بيسراي أكتافَهم أنني أطوي صفحة من عمري، أطوي عصرًا مدويًا صنعت فيه ثورة واخترعت مملكة

من أفكاري وخيالي وسهري. جمعت العشائر ووحّدتها وألّفت من أبنائها جيشًا. فاوضت عظماء الدول ونشرت اسم العرب في العالم. ليست الأسلحة ولا الليرات الذهبية التي تصنع الثورات، ولكن الأنبياء أو الذين يستمدون من قبسهم هم الذين يستطيعون أن يلهموا الرجال وأن يلهبوا الخيال والحماسة فينشئوا الأحلام من العدم. صنعت ما أردت ولن يرجع الزمن إلى الوراء أبدًا.

صعدت إلى المقصورة يتبعني زيد ونوري السعيد والحصري. انزلق القطار فوق سكته ببطء فيما أهل حوران يعودون إلى مواطنهم والفلاحون إلى حقولهم. لحظات قليلة وتفرغ المحطة من الرجال وتعود درعا إلى سكونها الذي اعتادته. ستكون ذكرى تتناقلها الأجيال، يروي جيل لآخر قصة الملك الذي نصب خيمته فوق رصيف المحطة وغادرها في يوم حار في أول شهر آب.

كنتُ لا أزال في أرض مملكتي التي تطويها عجلات القطار المتجه غربًا صوب فلسطين، والبيوت المتناثرة التي أتأملها من النافذة غارقة في الصمت والرتابة، وبدت لي الطبيعة كأنها تنحني للحرّ والسكون أو تنحني لمروري الحزين. بضعة أميال وأصبح خارج حدود دولتي، حيث تتوقف القطارات عند نقاط التفتيش ويصعد رجال الأمن ليتفحصوا هويات المسافرين. كنت سيد هذه الديار قبل سنتين أقود المعارك يتبعني آلاف الجنود والمقاتلين، وها أنا أعبرها مع بضعة هاربين ومنفيين لا يعرفون أين سيحطون رحالهم.

تابع القطار الذي وضعه هربرت صموئيل تحت تصرفي سيره

دون أن يتوقف عند حدود أو نقطة عبور، مخترقًا السهول والمزارع التي تتوسطها قرى صغيرة وبيوت متناثرة. انتابتني غصة حين أيقنت أنني صرت في أرض لا أملك فيها ولا أحكم، وخامرني شعور بالندم أضيف إلى مشاعري الحزينة الصامتة. سار القطار بمحاذاة البحيرة وانعطف جنوبًا وسط الحقول المحيطة ببيسان وانحدر شمالًا ليخترق وسط فلسطين وصولًا إلى العفولة، حيث بدأ بالتمهل قبل أن يصل إلى محطتها المنشغلة بجلبة الجنود الإنكليز، لم يأت أحد لاستقبالي ولم أغادر مقصورتي التي صعد إليها موظف إنكليزي يحمل فناجين الشاي التي طلبناها. لم يتعرّف إليّ ولم يعر أحدًا من الركاب اهتمامه، وقف منتظرًا وسرعان ما تنبه تحسين قدري فنقده ثمن الشاي الذي قدّمه لنا.

استأنف القطار سيره مخترقًا أراضي فلسطين الخصبة التي عصفت بها المواجهات في الأسابيع الأخيرة، وأنا أتساءل عن المصير الذي ستلقاه في ظل الإدارة الإنكليزية الجديدة؟ لم تكن لتربطني بهربرت صموئيل الذي عُيّن مندوبًا ساميًا قبل شهرين علاقات الود. لقد التقيته خلال زيارتي الأولى في بريطانيا وعرفته صهيونيًّا متحمسًا. وحين عُين في منصبه أرسلت إلى الجنرال اللنبي في القاهرة برقية احتجاج. قلت فيها إن هذا التعيين قد ترك أثرًا سيئًا عن النوايا الإنكليزية تجاه فلسطين، وضمنت رسالتي احتجاجًا على تسليح اليهود، فكان رده أنه سلح القرى اليهودية لتدافع عن نفسها أمام هجمات القادمين من منطقة سموك.

يا له من سوء تفاهم، كنت أظن حين جمعني لورنس بوايزمن في لندن أنه يبحث عن مكان ليهود بائسين عارضًا خدمات أغنياء

اليهود لدعمنا ضد الفرنسيين. وقد أتى به لورنس مرة أخرى وأخذ كعادته بالكلام دون أن يتوقف. كانت ثرثراته التي لا تنتهي تشعرني بالضيق، أفهمته باختصار أن موقفي ثابت وهو أن المملكة العربية لا تتجزأ. وحين صرحت لإحدى الصحف بأن اليهود يمكنهم العيش في ظل دولة عربية وتحت سلطة إسلامية أو مسيحية اتهموني بالعداء، وكان هربرت صموئيل أشد المنتقدين لتصريحي ولم يتوقف عن كيل احتجاجاته ضدي.

وصل القطار إلى حيفا، وقد لفت نظري مبنى محطتها الذي هو مثال لمحطة الحجاز في دمشق. كان الصمت يخيّم على الرصيف حيث احتشد بضع عشرات جاءوا لاستقبالي، ولكن الصمت سرعان ما تبدّد لحظة اختلط المستقبلون بالذين هبطوا من القطار، علت الهتافات وسار الجميع حولي في تظاهرة وسط ساحة المدينة. كانت لحظة مؤثرة أعادت إليّ الثقة المشحونة بالشجن، حسبتُ أنني أسير في ساحة دمشق، فكل شيء هنا، الفنادق والمقاهي والعمارات يذكر بدمشق، كأن الخيال العربي ينشئ مدنًا متماثلة تحتضن أجيالًا جديدة تستيقظ على العروبة التي تكتنفها المخاطر. لكن هواء حيفا البحري ليس كهواء مدن الداخل، كانت نسمات رطبة بالرغم من حرارة شهر آب تلطف أجواء المدينة التي يظلّلها جبل الكرمل القريب.

توجهتُ إلى منزل المس نيوتن الذي أُعدّ لإقامتي، واحدة من سيدات الإنكليز اللواتي أحببن الشرق وشغفن بأجوائه وقصصه. كنت التقيت خلال زيارتي للندن وباريس بسيدات أتين للقائي ليتعرفن إلى الشرق من خلالي، كنّ ينظرن إلى وجهي وكوفيتي

وعقالي دون ملل كأنهن ينظرن إلى الصحاري والمآذن. يغمضن أعينهن لحظات حين أتكلم بالعربية ويعبرن عن إعجابهن باللغة التي لا أشك بأنها سيدة اللغات. لكنني لم أفهم هذا الشوق إلى الشرق والخيالات التي يولدها في أذهانهن. لعلّ برودة الغرب هي التي تولد لديهن الرغبة في دفء الشرق وأسراره. لا يقتصر الشغف على النساء فعدواه ولدت في نفوس الأوروبيين انجذابًا إلى الشرق. وما زلت أتساءل في نفسي عن أولئك الذين يتركون بلادهم العامرة ليأتوا للعيش في الصحراء أو عند تخومها، يخوضون المغامرات والتجارب القاسية. لطالما سمعت التهم التي تلصق بكل أوروبي يأتي إلى بلادنا، كان بعض أعواني يتهمون كل أشقر ملون العينين بأنه جاسوس يعمل لمصلحة بلده. والحق أنني لم ألتق أوروبيًّا لا يقدم مصلحة بلاده على مصلحته الخاصة، ولكني أفكر بالدوافع التي تجعل هؤلاء الأشخاص المرموقين الذين يتمتعون بالذكاء والعلم يتركون بلادهم ويغادرون منازلهم المرفهة ومكاتبهم الهادئة ليأتوا للعيش معنا ومقاسمتنا شظف العيش في البوادي وسط المخاطر التي تحيط بهم حين يتنقلون من جهة إلى أخرى؟ أخبرني نواف الشعلان عن ألويس موزيل الضابط الألماني الذي عاش وسط عشائر الرولا، كيف تعلّم لهجتهم وأكل من طعامهم حتى صار يشبههم في عاداتهم. وقد عرفت لورنس أكثر من أي أوروبي آخر، أخبرني أنه تعلم العربية قبل أن تطأ قدماه أرض بلادنا وراح يبحث في جهات حلب ونواحي البادية عن الآثار التي لا يعيرها أهل البلاد اهتمامًا، لا أنكر غرابة أطواره ولكني لا أشك بأنه خدم قضيتنا حين كان يخدم حكومته. كان ماسينيون الفرنسي مختلفًا، التقيته مرات

عديدة في الوجه وفي باريس حين جاء ليفاوضني، وهو واحد من الفرنسيين المعجبين بروحانية الشرق، كان يدهشني بسعة اطلاعه ومعرفته بعلوم الدين وقد أخبرني بطرف من سيرته التي قادته إلى بلادنا. في كل مرة التقينا فيها كان الحديث ينحو إلى أمور الإيمان، يقول إن المسلمين والمسيحيين يشتركون في عبادة إله واحد، أعجبني فهمه للإيمان، وكنت أرد عليه بالقول إذا كانوا يؤمنون بإله واحد يمكنهم أن يعيشوا في وطن واحد يتسع للجميع.

استقبلتني مس نيوتن عند باب منزلها، سيدة لطيفة في مقتبل العمر، لفتتني أناقتها البسيطة وتواضعها، انحنت كما تعلمت أن تفعل عندما تلتقي ملكًا. ولحظت السعادة على وجهها حين صافحتني وشدت على يدي كأنها تريد أن تطيل لحظة ملامستي. قادتني صوب الشرفة حيث دعتني للجلوس لأرتاح من عناء السفر وقدمت لي الشاي الإنكليزي الذي أعدته بيدها كما قالت. حدثتني عن جمال حيفا وهدوئها بينما كنت أراقب البحر الممتد الواسع؛ أعرف أن هذا البحر الذي عبرته ذهابًا وإيابًا مرتين، وأنتظر أن يأخذني مرة أخرى إلى الضفة المقابلة حاملًا قضيتي ومصيري فوق ظهري.

عدتُ من زيارتي الأولى إلى أوروبا على ظهر الدارعة الفرنسية إدغار كينه التي أوصلتني إلى بيروت. أطلقت المدافع عند وصولي - يوم كانت المدافع تطلق ترحيبًا بي - مئة طلقة وطلقة. وحضر الجنرال الفرنسي مين لاستقبالي وسط الوفود التي جاءت من سائر البلاد احتفالًا بعودتي، فامتلأت الشوارع بالحشود التي لحقت بموكبي الذي سار بطيئًا وسط الزغاريد والهتافات حتى وصلنا إلى دار المعتمد العربي. صعدت إلى الشرفة أخاطب المحتشدين المتلهفين

لسماع كلماتي يومها أطلقت عبارتي: «الاستقلال يؤخذ ولا يُعطى» فصارت كلماتي شعارًا يُتلى في المنتديات ويُعلق فوق اليافطات وتردده الصحف، وعبئًا تلاحقني به الأحزاب والمظاهرات. ملأت بيروت نفسي بالثقة وشحذت عزيمتي التي خارت خلال سفري، ليست هجينة كما كان يقول عنها لورنس الذي يكره فرنسا ومن يتشبّه بهم وينطق بلغتهم. جاءت كل فئات الأهالي لتستقبلني وتعلن انتماءها إلى الدولة العربية التي صرت رمزها وحامل لواءها.

غادرت بيروت بعد ثلاثة أيام من وصولي إليها، فلحقت الوفود التي جاءت تستقبلني من أطراف سوريا ومدنها بي حتى وصلتُ إلى دمشق التي خرج أهلها مرة أخرى لاستقبالي، فكان دخولًا ظافرًا كيوم النصر.

توجهت في اليوم التالي إلى دار الحكومة حيث كانت الوفود بانتظاري. كان الجميع ينتظر سماعي يريدون معرفة ما حققته في أوروبا. تهيبت الموقف وأدركت صعوبة المهمة وثقل المسئولية؛ ترددت واعتذرت للحضور لأنني لست من رواد المنابر، قلت لهم: كلماتي ستكون حاسمة بالنسبة إلى مستقبل الأمة، فالوحدة في الظروف الراهنة ليست سهلة المنال، ستكون لكل بلد حكومته، العراق وسوريا والحجاز، طلبت من الحاضرين تفويضًا في تدبير شئون البلاد ومواصلة المفاوضات مع الحلفاء.

علا التصفيق والهتاف، قام ممثل كل وفد ليبايعني، وكانت وفود من المناطق والعشائر والطوائف والمدن حاضرة، فأثنى كل بدوره على جهودي ومنحني التفويض الذي أردته.

مدتني كلماتهم بالثقة والتشجيع الذي أحتاجه، وشعرت القوة في نفسي، لكني توجست الخطر، لأن دمشق تغيرت خلال غيابي، صارت المدينة قبلة العرب التي ينشدون الوصول إليها والإقامة في أرجائها، عاد إليها الشاميون أمثال يوسف العظمة تسبقه شهرته كضابط متمرس وكقائد في ميدان القتال فجعلته مرافقي، وعاد من مصر الدكتور الشهبندر الذي تعرفه دمشق طبيبًا وخطيبًا ومعه فوزي العظم والشيخ كامل القصاب، ورجع من إستامبول كرد علي الذي دعوته فلبى دعوتي، وصلها الحلبيون القادمون من إستامبول وبينهم ساطع الحصري وإحسان الجابري. ووفد إليها اللبنانيون والفلسطينيون أمثال عزة دروزة ورفيق التميمي وأسعد داغر. صارت دمشق عاصمة العرب، وقد غصّت فنادقها بالنزلاء ومنتدياتها بالخطب ومقاهيها بالنقاشات وشوارعها بالتظاهرات. كانت الحماسة شديدة. تخرج التظاهرات في كل مناسبة لتطلق الهتافات والرصاص في السماء تظاهرات لا تنقطع تنظمها الأحزاب التي نشطت في غيابي تحرك العامة متى شاءت. وصار النادي العربي مركزًا لتنظيم النشاطات وبث الدعايات، وكان الهياج قد غمر دمشق وفاض منها إلى أنحاء البلاد ومدنها.

شعرت بالقلق، فقد بدأت الأمور تفلت من يدي، واندلعت الثورات في مناطق الساحل وحلب، فمددت لها العون، وحسبت أنها ستخدمني في وجه خطط الفرنسيين. لم أكن أخشى الأحزاب ودعاياتها وأحظى بتأييد جمعية الفتاة التي أعتبرها جمعيتي، لكني اختلفت للمرة الأولى مع قيادتها في الاجتماع الذي عقدته في منزل جميل مردم. كنت أريد أن تقف هيئة الفتاة إلى جانبي عند الاستفتاء

الذي ستجريه اللجنة الأميركية، لكن المجتمعين لم يأخذوا برأيي وأصروا على طلب الاستقلال الكامل، بينما كنت أسعى إلى إقناعهم بقبول دور لبريطانيا حتى نفوت على فرنسا مطامعها.

انشغلت وانشغلت البلاد بانتخاب نواب الأمة لتشكيل مؤتمر تأسيسي، لكن النتائج جاءت مخيبة لآمالي؛ فاز في دمشق أبناء العائلات التي بقي غالب أفرادها إلى جانب الأتراك حتى اللحظات الأخيرة من أيام الحرب، أولئك الذين لم تقنعهم الثورة ولم تأخذهم شعاراتها وأبدوا حذرهم من قيادة الحسين والهاشميين. شعرت أنني أفقد سحري وأن التغيير الذي طرأ على مزاج البلاد أكبر مما ظننت وقد أخذت الأحداث التي تحيط بسوريا تشغل بالي، الأتراك يقاومون ويحرزون الانتصارات، والفرنسيون في الساحل يحيكون الدسائس، ووالدي في مكة يواجه أقصى هزيمة، كنت في غمرة انشغالاتي، أستعد لاستقبال اللجنة الأميركية في نهاية شهر آيار حين تبلغت أخبار معركة تربة، خسر والدي قواته التي تحطمت أمام مقاتلي ابن سعود ونجا عبد الله من الموت بأعجوبة بعد أن خسر رجاله، وبات الحجاز تحت رحمة الإخوان.

كانت الأحداث تتسارع، جاب أعضاء اللجنة الأميركية البلاد واستمعوا إلى الآراء وتلقوا العرائض من الأهالي الذين طالبوا بالاستقلال التام ورفض مشاريع الاستيطان في فلسطين. لم تنه اللجنة مهمتها حتى دخلت البلاد في دورة اضطراب بعد أن انتشرت الشائعات عن مفاوضات سرية بين الحلفاء لتقاسم المناطق، عاد الأهالي إلى الشارع ينظمون تظاهرات الاحتجاج، وعلت الصيحات التي تدعو إلى التطوع لقتال الفرنسيين وامتلأت

أحياء المدينة بالشباب الذين ارتدوا الملابس العسكرية واستسلمت البلاد للهياج بعد أن ازدادت حوادث الصدام مع الفرنسيين.

أخذت آمالي التي كنت لا أزال أحملها منذ عودتي من أوروبا بالتلاشي واحدة بعد الأخرى. لم يكتف الفرنسيون برفض نتائج الاستفتاء، ولكنهم هرعوا إلى بريطانيا يطالبونها بتنفيذ الاتفاقات القديمة، وسرت الشائعات بأن بريطانيا ستخلي مواقعها في سوريا للفرنسيين، وتيقّنت من الأمر حين أبلغني الجنرال اللنبي القرار بناء على طلب من لويد جورج، كما أبلغني بأن بريطانيا راغبة بالانتداب على فلسطين حيث ستبقي على جيشها هناك.

شعرت بالخديعة، فقد خسرت كل شيء، نسي الأمريكيون مبادئهم وأداروا ظهرهم للعالم وتخلى الإنكليز عن وعودهم لنا وصرت لوحدي أجابه الفرنسيين. أرسلت إلى الحكومة الإنكليزية أبلغها بأن العرب لم يقاتلوا من أجل تسليم بلادهم إلى الانتدابات، ولن يتحملوا الإهانة وسيقاتلون دفاعًا عن بلادهم وسأكون أول المقاتلين.

قبل سنة، في بداية شهر آب من العام الماضي، كانت الأمور قد بلغت المنعطف الأخير. صرت أمضي ليالي بأكملها دون نوم، شعرت بأن تضحياتنا قد ذهبت سدى، وها هي سوريا تستعد للثورة من جديد. مددت إلى الأتراك الذين يقاتلون الفرنسيين المساعدة، وشجعت دعوات التطوع وساندت أعمال المقاومة، كانت دمشق في غليان حين جاءتني الدعوة للحضور إلى أوروبا لأشارك في المداولات حول مستقبل البلاد. غادرت مسرعًا علني أستبق أي اتفاق بين الحلفاء على حسابنا.



(١٧)

صار منزل المس نيوتن مقرّ لقاءاتي مع المنفيين في حيفا، ممن رافقوني في سفري أو الذين سبقوني في الوصول إليها، وقد خصص لهم حاكم المدينة فندق نصار مكانًا مؤقتًا لإقامتهم. كنت أشغل وقتي بتسقط الأخبار التي تصلنا من دمشق، أخفي ألمي كلما سمعت بإجراء من إجراءات جيش الاحتلال الذي يصادر الأملاك ويتعقب الفارين ويصدر أحكامًا بالنفي والإعدام، كانت أسوأ الأخبار تلك التي تذكر الأشخاص المتعاملين مع الفرنسيين والذين هرعوا لتقديم الطاعة والولاء. علمت أن نوري الشعلان قد قصد مقر إقامة الجنرال غورو وقدم له سيفًا مذهبًا، لعله السيف الذي كنت قدمته له فيما مضى!

كانت لقاءاتي مع الحصري والقوتلي والجابري تدور حول وقائع الأيام الماضية، وحول ما يمكن أن أفعله في أوروبا التي سأقصدها في الأيام القريبة. وأتابع مع جعفر العسكري وراسم سرادست أخبار الثورة في العراق، وأصرف بعض ساعات النهار في مساعدة الرجال على تدبير شئونهم والحصول على الإجازات التي تسمح لهم بمغادرة فلسطين إلى مصر.

أوقات كثيرة كنت أمضيها في شرفة المنزل أراقب البحر الممتد الواسع. كنت أتطلع إلى المرفأ الذي يتقدم المشهد، والسفن المنتظرة أمامه تنم عن نشاطه. سفن الشحن وسفن الركاب، تأتي بالبضائع من موانئ أوروبا المتوسطية وتحمل المغامرين والمهجرين. أتساءل عن هذه الحركة التي لا تهدأ والتي تشي بالمصالح والمشاريع التي تحاك لوضع اليد على هذه البلاد، لقد تبدلت حيفا في غضون السنوات العشرين الأخيرة، ووفدت إليها جماعات من الألمان واليهود واليونان والإنكليز. أقيم حي يهودي وآخر ألماني خارج المدينة القديمة التي لا تزال تحتفظ بتقاليدها. ولا ينفك الأوروبيون عن الوصول إلى مرافئ هذه البلاد يحملهم البحر المتوسط من ضفة إلى أخرى، ينقل عبر مياهه السياسة والتجارة والحروب المستترة.

أعرف هذا البحر وأعرف حيفا التي جئتها قبل سنة في طريقي إلى أوروبا.

لم تمض سوى ست ساعات على تبلغي برقية لويد جورج حتى غادرت دمشق مع فؤاد الخطيب والدكتور قدري بالقطار إلى حيفا ومنها إلى الإسكندرية للإبحار على ظهر مدمرة بريطانية غادرت مرساها ساعة وصولي. وبعد يومين من الإبحار توقفت في مالطة ليعلن لي القبطان أن مدمرته قد تعطلت! لم يكن ذلك إلا تدبيرًا بهدف تأخيري حتى يتسنّى للفرنسيين إنجاز اتفاقهم قبل وصولي. وكانت مفاجأتي أشد حين وصلت إلى مرسيليا، صعد ضابط فرنسي ليبلغني باسم حكومته رغبتها في متابعة سفري إلى بريطانيا

دون المرور بباريس. وفي مرسيليا علمت من الصحف أن الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا قد أبرم.

استعجلت السفر إلى لندن علني أقدر أن أغيّر شيئًا مما تم، أعدّ لي استقبال يليق بأكبر الضيوف، ولم يكن إلا تعويضًا عن الطعنة التي وجهها إليّ الحلفاء. مضيت لمقابلة رئيس الوزراء الذي أفاض بمجاملتي وتطييب خاطري. وشرح الأسباب المالية والنفقات الباهظة التي دعت بريطانيا إلى اتخاذ قرارها بالانسحاب من سوريا، وحين ذكرته بالوعود التي قطعت للعرب والتضحيات التي بذلناها في سبيل الحلفاء راوغ ولم يقدم أي إجابة شافية.

أرسلت إلى والدي أشرح له صعوبة الوضع، فبعث إليّ ببعض ما لديه من وثائق ومراسلات. وجمعت ما يشكل مواد معاهدة بين والدي والإنكليز، ولكن لويد جورج ووزير خارجيته أنكرا وجود أي اتفاق، ونصحاني بالتفاهم مع الفرنسيين.

لم يكن أمامي سوى العودة إلى باريس وقد جردت من كل أسلحتي. كنت أفكر بترك كل شيء والعودة إلى سوريا لمجابهة الناس بالحقيقة ودعوتهم إلى إمساك مصيرهم بأيديهم، ولكن كليمنصو الذي قابلني في اليوم التالي لوصولي دعاني إلى التريث ووعدني بتوقيع اتفاق يحفظ استقلال البلاد ويرضي مطالب فرنسا.

عشت على أمل دعوة كليمنصو فيما المفاوضات مع المسئولين في الخارجية تتواصل. وفي خضم انشغالي بلغني خبر اعتقال ياسين الهاشمي في دمشق الذي اتهم بأنه يسلح الثوار ويمد العون إلى الأتراك. غضبت لاعتقاله وأرسلت إلى الحكومة البريطانية

احتجاجًا. وكما توقعت فإن حادثة الهاشمي أدت إلى انفجار الغضب في دمشق وتصاعدت أعمال مقاومة الفرنسيين، وتبادلت الأطراف التهم حول المسئولية في اعتقاله وحامت الشبهاب حول الركابي، وكان المتشددون في دمشق يريدون الضغط عليه لدفعه إلى الاستقالة متّهمينه بالاعتدال والمهادنة.

لم تكن أخبار سوريا لتصلني بانتظام، كان الفرنسيون يؤخرون إبلاغي البرقيات التي يبعث بها زيد إليَّ، ومع ذلك فما كنت أسمعه كان يكفي لإقلاقي، وزاد في ذلك أنني لم أعد أملك ما أصرفه. خارت قواي وفقدت هيبتي، وحين طلبت من الحكومة الإنكليزية مبلغًا على حساب المخصصات التي تمنح للحجاز رفضوا وبعثوا لي أن أطلب من الفرنسيين جزءًا من المساعدة المتوجبة عليهم. يريدون بذلك أن أرضخ للفرنسيين وأرتهن لهم. لازمني اليأس من أعواني، كل مشغول بنفسه معتد برأيه يتخاصمون ويشكو بعضهم بعضًا، لا يكتم أحدٌ سرًّا، ولا يصلحون لاستشارة. وقد انقسموا فريقين، بعضهم يطالبني بالعودة دون تأخير، وبعضهم الآخر يدعونني إلى مواصلة المفاوضات والتريث.

لم أعد أحتمل المزيد، هددت بالاستقالة والانسحاب، ولكني قبلت بالانتظار حتى عودة كليمنصو من لندن.

قال كأنه يخبرني سرًّا: ورائي جيش من الصليبيين، ولكنني لست صليبيًّا، طمأنني إلى مسألة العسكر، فيمكن إرجاع الجنود الذين تقدموا صوب مناطقكم إلى مواضعهم.

كان اللقاء جيدًا وخرجت منشرحًا. صرت مستعجلًا توقيع

الاتفاق الذي حمل اسمي واسمه، ولكن والدي أرسل لي من مكة أنه يرفض توقيع أي اتفاق لا يتناسب مع العهود التي قطعتها بريطانيا للعرب.

انقسم أعواني مرة أخرى، وجاءني الدكتور قدري يرجوني عدم التوقيع. لم أعد قادرًا على البقاء أكثر، قررت السفر بعد أن وعدت كليمنصو أن أطلب موافقة الأمة على اتفاقنا وعدت لتوّي إلى البلاد.



(١٨)

جلست أتأمّل البحر عند المغيب. كنت وحدي مع أفكاري المتضاربة، وقد اختلط الماضي بالحاضر. أفكر بما جرى وبما سيجري لي في أوروبا التي سأذهب إليها مرة أخرى. كنت أفكر بالأتراك الذين قدروا أن يقاوموا مخططات الدول، أفكر بالعراق حيث الثورة تجبر الإنكليز على التراجع. لعلّ ترددي هو الذي أفقدني أوراقي واحدة بعد الأخرى. خسرت المتشددين الداعين إلى القتال ولم أكسب المعتدلين. حاولت أن أمسك الأمور من الوسط فاختلت أحوال البلاد، وحين قررت خوض القتال مرغمًا كان الوقت قد فات.

لا أتنكر لمسئوليتي، ومع ذلك فإنني أتقاسمها مع العديدين الذين كانوا سببًا في تردي حالتنا وتفاقم ضعفنا وانقسامنا. لو كنت متيقنًا من قدرتنا على القتال لما تجشمت عناء، المفاوضات ولما اضطررت إلى تقديم التنازلات. اتهموني بالتساهل والتفريط وحين جربوا القتال لم يصمدوا ساعة واحدة. حتى والدي الذي يتشدد ويرفض كل تنازل عجز عن الصمود أمام ابن سعود وهو تحت تأثير تهديده في كل لحظة.

أخذتني أفكاري إلى الحجاز، وقد انتابتني موجة من الحنين إلى ابني الصغير غازي وشقيقاته. أمسكتُ القلم لأخط أول رسالة إلى ولدي بعد خروجي من دمشق، كما يليق بي أن أفعل. أردت أن أشرح موقفي مما جرى، وأن أطلب مساعدته، فلم يكن ثمة من يمد لي يد العون غيره.

وجدت صعوبة في اختيار الكلمات، ترددت للحظات ثم شرعت في الكتابة: لم تكن حالتنا لتتعدى الضعف والخصام حين ظهرت نوايا فرنسا وأطماعها واضحة. كان الشبان العرب يرفضون كل تساهل، بينما كنت أسعى إلى القبول ببعض الشروط من أجل الحفاظ على الأمة من الضياع. كان بمقدوري أن أضرب على أيدي المتشددين في الأحزاب، لكنني لم أفعل مخافة أن يلومني التاريخ. ولم تكن الأحزاب وقادتها الذين يرفعون الشعارات الطنانة ليدركوا حقيقة ضعف البلاد وقوة الأعداء، ومن المؤسف أن الأمة قوالة غير فعالة، يتحدثون عن حملات التطوع وينظمون التظاهرات التي تدعو إلى مقاومة الأجنبي ولكنهم يفرون من التجنيد والخدمة العسكرية، فإذا بالفارين من الجيش أكثر من المتطوعين. قبلت بشروط غورو ولكن بعض الأحزاب المتهورة قامت وحرضت الناس على الثورة، وسقط القتلى من أبناء الوطن، في حين كان العدو يتربص بنا الدوائر.

كتبت أشرح لوالدي الأسباب التي دعتني إلي مغادرة دمشق، فالأمل بالمقاومة ضعيف، وقد تشتت الجيش وتفرق أعواني، وكان قادة الأحزاب أول من غادر البلاد. ذكرت له أنني سأقصد هيئة الأمم لأتابع القضية عبر الوسائل السياسية.

ذكرت له حاجتي إلى المال لمواصلة طريقي إلى أوروبا، وطلبت أن يمدني بنصائحه ويدعو لي بالتوفيق. طويت الرسالة وأعطيتها إلى تحسين قدري كي يتدبر الوسيلة لإيصالها إلى مكة.

كنت أرجو أن يتفهم والدي الظروف التي أحاطت بي، وأن يراجع الأسباب التي أوصلتنا إلى خسارة القضية التي حملناها على أكتافنا. كان أسير أفكاره وهواجسه وأسير عزلته في مكة، ولم يكن ليعير ما يجري في العالم اهتمامه. تخلت عنا بريطانيا ونكثت بعهودها، لكن والدي بقي يتحدث عن العهود التي قطعتها له قبل خمس سنوات. يظن أنني فرطت بالبلاد، ويأبى الاعتراف بأنني كنت أواجه عتاة السياسة في أوروبا وحيدًا، غير عابئين بالوعود التي قطعوها له وكلمات الشرف التي لا تدخل معاجمهم ولا كتب سياستهم.

نقلتني السفينة فالديك روسو من طولون إلى بيروت في أول أيام هذه السنة، بعد أن ودعت كليمنصو ووعدته بأن أحصل على موافقة الأمة لتوقيع الاتفاق الذي تم بيننا. أرسل غورو لاستقبالي نائبه دلاموت ورافقني إلى منزل المعتمد العربي، وفي اليوم التالي أقام غورو حفلة استقبال كبرى في البارك، وقد تعمد أن يسير أمامي. آلمني تصرفه لكنني كتمت غضبي. وحين التقيت الوفود التي جاءت لتحيتي حدثتهم عن رغبتي الصادقة في تنفيذ الاتفاق بعد العودة إلى ممثلي الأمة.

كانت الأخبار التي وصلتني من دمشق تحثّني على العودة، فلم يكن ما حدث خلال غيابي بأقل من انقلاب، رضخ زيد للمتشددين وأقال الركابي ودخلت البلاد في قبضة الهياج والتطرف.

قدم الأهالي لاستقبالي عند مداخل المدينة ورافقوني في شوارعها. كانت أخبار الاتفاقية قد سبقتني، وفي اليوم التالي لوصولي خرجت تظاهرة صاخبة، جاءوا إلى القصر يهتفون فخرجت إلى الشرفة لأحييهم. كانوا يرددون الشعارات والصخب يملأ الفضاء. نهض الشيخ القصاب على الأكتاف وبدأ خطبته موجهًا كلامه إليّ: إني واثق أنك لن ترضى، وحاشاك أن ترضى، أن تكون أميرًا على بلاد يظلّلك فيها علمٌ أجنبي.

التهب المتظاهرون حماسًا وتصفيقًا وأدركت أن الأمور قد أفلتت في دمشق التي أصبحت أشبه بقارب تتقاذفه أمواج الأحزاب، صارت طوع الشيخ القصاب ولجنته الوطنية، يحرك شبابها ويبث فيهم الحماسة ويخرجهم إلى الشوارع متى شاء.

من أين أتته القدرة على كل ذلك؟ لا أنكر أن الشيخ كامل القصاب باعه الطويل في النضال والفرار وحياة المنفى. فقد اعتقل في سجون جمال باشا ولما لم يقدروا على إدانته أفرجوا عنه. خرج من سوريا في ركاب مفتيها وقدم إلى مكة حيث بايع والدي. لكنه لم يمكث سوى وقت قصير غادر بعدها إلى القاهرة وانضم إلى جملة السوريين المنفيين في مصر. وهو واحد من سبعة سوريين تعهد لهم الإنكليز بضمان استقلال سوريا بعد الحرب، وهو عهد آخر من عهودهم التي أغدقوها وتناسوا أمرها.

أدهشني الشيخ القصاب، فقد رجع إلى سوريا حين كنت في رحلتي الأولى إلى أوروبا. عاد مع سائر السوريين الذين رجعوا من مصر وبدأ ينشط بين الشباب العربي الذي كان مأخوذًا بزعامتي،

حتى أنه انضم إلى العربية الفتاة التي هي حزبي، وأعضاؤها جماعتي. لم أحسب أنه سيصير زعيمًا تدين له أحياء دمشق بالولاء يحركها متى أراد بسحر كلماته وخطبه الرنانة. كان يملك سحرًا يضاهي سحري، بل يملك أن يطوِّع الكلمات التي لم أقدر يومًا على تطويعها والتلاعب بها. بلى كانت لي القدرة على الإقناع، أجتمع بالشخص الواحد فيخرج مسحورًا بي وبنسبي وتسامحي وكرمي، أما القصاب فيملك أن يقنع الآلاف المجتمعة، لم يكن يملك المنطق الذي أستخدمه، لكنه يقدر على الخطابة التي تؤثر في العامة وتحرك الحشود والجموع.

حدث كل شيء خلال غيابي في أوربا. انتشر خبر انسحاب الإنكليز من سوريا، وحلول الفرنسيين مكانهم، فدبت حركة تطوع ولبس الشباب ثياب العسكر. في تلك الآونة برزت مواهب الشيخ القصاب الذي دعا إلى تشكيل لجنة الدفاع الوطني. كنت في باريس أشجع حركة التطوع ظنًّا مني بأنها تدعم موقفي في المفاوضات، بل حسبت أن أعمال المقاومة هي خير ردّ على قرار الإنكليز بالانسحاب وتسليم البلاد للفرنسيين. كنت بعيدًا ولم أتنبه للتبدلات التي طرأت على مزاج دمشق التي أيدت تشكيل لجنة عليا للدفاع، وانتدبت عن كل حي من أحيائها الثمانية والأربعين، أربعة مندوبين، عقدوا اجتماعهم في دار البارودي في القنوات. في تلك اللحظة كرس الشيخ القصاب زعامته، وقف خطيبًا وأعلن المبادئ التي لا يمكن التنازل عنها مطالبًا بالاستقلال التام، فانصاعت له العامة ومشت خلفه.

زاد اعتقال ياسين الهاشمي من هياج العامة، وقد اتخذت هيئة

الفتاة من الأمر ذريعة للاستيلاء على الحكومة. اتهموا الركابي بالتواطؤ وأجبروه على الاستقالة وسعوا لدى زيد فعينوا مصطفى نعمة مكانه وجعلوا يوسف العظمة رئيسا لديوان الشورى الحربي مكان الهاشمي المعتقل. رضخ زيد الذي أفلتت الأمور من يده لإرادة المتشددين الذين قاموا بانقلابهم المقنع خلال غيابي، مستبقين عودتي وفي جعبتي اتفاقي مع كليمنصو.

كنت غاضبًا مستاء من جمعية الفتاة التي سلمت قادتها شئون البلاد، فانقلبوا عليّ يحرضون الناس ضد سياستي. ذهبت إلى النادي العربي حيث كان اجتماع حاشد حضرته كل القيادات. عبرت عن أفكاري وهواجسي، قلت إنني لا أخشى الحكومة ولا الجمعيات ولكن أخشى التاريخ وأخاف أن يقال إن فيصلًا عمل ما لا يليق بآبائه وأجداده الذين كانوا يسعون ويعملون من أجل الاستقلال.

توالى الخطباء على المنصة يتبارون في إطلاق الشعارت وبذل الدعوات إلى القتال. وقف الدكتور الشهبندر يتلو العبارات، قال إنه يدخل البيوت بحكم مهنته ويقرأ أفكار الناس، أخرج من جيبه سماعته الطبية وقال إنها توصل إلى سمعه دقات قلوب الشعب القلق على مصيره.

حنقت من كلامه وكرهته كما كرهت أمثاله من أهل الشام. وقفت لأرد على الخطباء فشكرت الشبيبة التي دعت إلى الحفل. كانت كلماتي مرتبكة فاعتذرت للحضور وقلت: ربما لاحظتم أنني أتلعثم في القول، فأنا لست خطيبًا ولم أعتد الوقوف خلف المنابر، لأنني ألفت الصمت، ومن يعرفني قديمًا يعرف ذلك عني. ولهذا

أرغب أن تكون الأمة صامتة مثلي تعمل كثيرًا وتقول قليلًا. ما زلنا منذ سنة ونصف نتكلم، ولعل وقت العمل قد أتى، إن الحماسة شديدة ولكنها لا تجدي.

وتوجهت بنظري إلى الشهبندر وقلت له: إن الحكومة تقوم بعملها ويا ليت الشهبندر يقوم بعمله ويرقّي الفن الذي يختص به، فإذا عمل كل في مجال اختصاصه تنتظم الأمة بأجمعها.

خرجتُ من الاجتماع منهكًا. استمعوا إليّ ولكن كلماتي لم تقنعهم، وأدركت أنني فقدت سحري ولم أعد السيد الذي يدين له الجميع بالطاعة. من أين ظهر القصاب الذي يجرؤ على نصحي وكيف نبت الشهبندر الذي لم يتورّع عن غمز قناتي.

كان لا بد لي من استعادة المبادرة طلبتُ اجتماعًا سريًّا لهيئة الفتاة، فاجتمع قادتها في منزل الدكتور قدري، وهو الذي اعترض على اتفاقي مع كليمنصو حين كان معي في باريس، وحين عدنا إلى دمشق أخبر الجميع بما جرى. كلمتهم بإخلاص ورجوتهم أن يقدروا قوتنا ولا ينجروا خلف عواطفهم، لكنهم أصرّوا على موقفهم وتمسكوا بما اتفقوا عليه مجتمعين.

كنت أسعى إلى استعادة سيطرتي حتى لا تقع البلاد في الفوضى؛ أبدلت لجنة الفتاة بأخرى أكثر اعتدالًا، وسعيت بواسطة نسيب البكري في تأسيس حزب من المعتدلين الذين يؤيدون اتفاقًا مع الفرنسيين، وشكلت حكومة برئاسة الركابي وقررت أن أمضي في سياستي. ذهبتُ إلى حلب واجتمعت بقيادات الثورة ونصحتهم بالتزام الهدوء، وتوجهت إلى بيروت حيث اجتمعت

بالجنرال غورو وطلبت منه أن يسعى معي في تهدئة الأحوال، لكنه لم يستجب لدعوتي، ولم يلب طلبي في الإفراج عن المعتقلين.

هدأت الأحوال لبضعة أسابيع، ليعود التوتر مجددًا أقوى مما كان عليه من قبل، وبلغت الأمور حدًّا ينذر بالفتنة، حين أخذ المتشددون بتوجيه الاتهامات إلى أعواني. في تلك الظروف الحرجة أعطى والدي للمتطرفين حجة ضدي، فقد بعث برسالة تعمّد نشرها في الأهرام المصرية حتى يصل مضمونها إلى الجميع، تستنكر أي عمل لا يتفق مع وحدة البلاد واستقلالها. قال إنه لا يقرّ أي مادة يقرّها الأمير فيصل يكون مقتضاها الانتقاص بشيء من الحقوق والاستقلال.

(١٩)

مكثت في حيفا أنتظر جواب الجنرال اللنبي على رسالتي التي أعلمته فيها رغبتي بزيارة القاهرة. لم يتأخر جوابه فقد أرسل يقول إن الظروف الراهنة لا تسمح له باستقبالي. وكنت أنتظر جوابًا من الخارجية الإنكليزية بعد أن أعلمتهم برغبتي في زيارة بريطانيا. حضر السير هربرت صموئيل إلى مقر إقامتي في زيارة مجاملة وكان يحمل في جيبه رسالة جوابية من اللورد كورزن، كانت رسالة ذات معان أعلن فيها أن حكومته لن تقابل بالنسيان موقفي وتترقب أن تقابلني بما يتناسب مع ما أبديته من الود تجاهها.

أحيت رسالة اللورد كورزن الأمل في نفسي وانقلب مزاجي من حال إلى حال، بالرغم من أن السير صموئيل حاول إقناعي بالعودة إلى الحجاز في الوقت الراهن بسبب ظروف المفاوضات التي تخوضها بريطانيا مع فرنسا وسائر الدول، لكني أفهمته بلباقة أن عودتي إلى الحجاز مستحيلة دون أن أشرح له أسبابي.

بدأت في اليوم التالي ترتيب أمور سفري. طلبت من تحسين

قدري أن يستفسر عن موعد إقلاع السفن المسافرة إلى أوروبا. جمعت أعواني وأخبرتهم بخطتي بالذهاب إلى عصبة الأمم والسعي للاتصال بكل القوى التي يمكن لها أن تساعدنا. كنت أفكر بأعداء الحلفاء، الأتراك والألمان والبلاشفة، لن أضيع فرصة ولن تمنعني قوة عن التحالف مع الشيطان. طلبت من الحصري أن يهيئ ما يلزم من المستندات التي أحتاجها حين أعرض قضيتي في عصبة الأمم وأوكلت إلى زيد مهمة الاعتناء بالرجال ومساعدتهم في شئون سفرهم.

انتهى كل شيء، وأضحى المُلك الذي لم أطلبه عبئًا فوق كاهلي.

لم يكن أمامي في بداية شهر آذار/ مارس الماضي سوى الرضوخ لمطالب المتشددين ونداءات المقاومة والدفاع التي لم تفتر. طلبت إلى الحكومة أن تعمل على تقوية وسائل الدفاع وفرض التجنيد الإجباري، في الوقت الذي كانت أعمال العصابات ضد مواقع الفرنسيين تتوسع. كنت أظن أن أعمال المقاومة ستعزز موقفي في كل مفاوضة مقبلة، خصوصًا أني تلقيت دعوة للمشاركة في الاجتماع الأول لمجلس الحلفاء الذي سيعقد في لندن، لكن الأحزاب رفضت سفري بحجة الحفاظ على كرامة سوريا. صرت أسير الأحزاب والعامة، وكنت في قرارة نفسي أخشى مغادرة البلاد فتقع في قبضة المتشددين. لم يعد أمامي سوى دعوة المؤتمر إلى الانعقاد ليتخذ ممثلو الأمة القرار بأنفسهم. بدأ الأعضاء بالتوافد إلى دمشق، وذهبت إلى النادي العربي لألقي كلمة الافتتاح، ثم تركتهم ليقرروا توصياتهم. تواصل اجتماعهم حتى صباح اليوم

التالي، وقرروا بالإجماع استقلال سوريا وإعلان الملكية وتقديم العرش لي ومبايعتي في اليوم التالي.

سارت الأمور بسرعة لم أكن أتوقعها كأنها قدر مرسوم لا مجال لمراجعته أو العودة عنه. كان قرار المؤتمر خطوة في المجهول يريدون بذلك أن يضعوا الدول ويضعوني أمام الأمر الواقع، ولم أكن قادرًا على الرفض، فأنا الذي دعوت المؤتمر ليقرر بنفسه مصير البلاد. شعرتُ بخطورة القرار وعظم المسئولية الملقاة على عاتقي. وفي وسط انشغال البلاد بالاستعداد لتنصيبي ملكًا، اعترضتني مسألة عائلية لم يفكر بها أعضاء المؤتمر، كيف يمكنني أن أقبل العرش بوجود أخي عبد الله الذي يكبرني؟ قرر العراقيون الذين اجتمعوا مبايعته ملكًا على العراق في الوقت نفسه الذي يبايعني فيه السوريون ملكًا على سوريا.

جرت المراسم في دار البلدية. كنت مترددًا في داخلي وخائفًا، ولكن نزول الناس إلى الشوارع واحتشادهم أمام الشرفة التي سأطلّ منها ذهبت بخوفي وترددي. أدركت مشاعر الناس الذين أرهقتهم دسائس الدول فجاءوا ليعبّروا عن تمسكهم ببلادهم ويشهدوا على ولادة المملكة التي وعدوا أنفسهم بها. يريدون أن يمسكوا مصيرهم بأنفسهم وأن تكون لهم السيادة في ديارهم. استعدت ثقتي بنفسي وأيقنت أن مكامن سحري لم تنضب.

كانت لحظة فريدة لن أنساها، فلن يتاح للمرء أن ينصب ملكًا سوى مرة واحدة في حياته. وصلت إلى مكان الاحتفال فهب الحاضرون بالهتاف. تقدّمت نحو مقعد المُلك الذي أعد لي، في

الوقت نفسه نهض رئيس المؤتمر ليعلن بدء مراسم التنصيب ثم تلاه عزة دروزة الذي تلا قرار إعلان الاستقلال والملكية. تقدم رئيس البلدية يحمل علم سوريا الجديد ولوّح به فدوت الهتافات مرة أخرى قبل أن يسلّمه إلى مرافقي فخري البارودي الذي رفعه فوق السارية. وفي تلك اللحظة اختلط ضجيج الهتافات بدوي المدافع التي أطلقت لتعلن قيام المملكة. نهضت عن كرسي المُلك وتقدمت صوب الشرفة لأشكر الأمة على ثقتها بي، وأشهدت الله والناس على أعمالي. وحين أنهيت كلمتي تقدّم زيد ليبايعني ثم تلاه رجال الدين ورؤساء الطوائف وأعضاء الحكومة والمؤتمر.

ما الذي سيقوله والدي حين يصله خبر تنصيبي ملكًا على سوريا؟ كنت مشغول البال بموقف والدي وأخي عبد الله حين كنت في طريق عودتي إلى القصر حيث كان الناس ينتظرون وصولي. احتلّوا الساحات وهتفوا باسمي ورددوا الأهازيج: «زيّنوا الساحة والساحة لنا». تقدم الوجهاء لتقديم البيعة وتوافد المهنئون طيلة النهار، وفي اليوم التالي انصرفت إلى ترتيب شئون مملكتي.

أردت الاستفادة من التأييد الذي منحتني إياه الأمة، فكلفت الركابي تشكيل حكومة تكون بمنأى عن تأثير المؤتمر. لكن أعضاء المؤتمر اعترضوا وحضر وفد منهم لمقابلتي. قلت لهم: إن مؤتمركم ليس هيئة دستورية لتمنح الحكومة الثقة، فاعترض الشيخ رشيد رضا الذي نهض ليلقي خطابًا، قال: «إن المؤتمر أعظم سلطة من المجلس النيابي لأنه بمثابة جمعية تأسيسية»، أجبته وقد أثار حنقي: «أنا الذي أوجدته فلا أعطيه هذا الحق الذي يعرقل عمل الحكومة». أجابني: «بل هو الذي أوجدك فقد كنت قائدًا من قواد الحلفاء فجعلك ملكًا على سوريا».

غضبت وأنهيت اللقاء، لكنني لم أصل إلى مبتغاي. وخلال ثلاثة أيام متواصلة، كانت هيئة الفتاة تأتي إلى القصر لنجتمع في حديقته كل صباح قبل أن يتقاطر الناس وتأخذني المشاغل، واتفقنا أن يبقى المؤتمر هيئة منعقدة تناقش الدستور وتمنح الحكومة الثقة.

صرت أسير المُلك.

لم يرض إعلان الاستقلال فرنسا وبريطانيا، اللتين اعتبرتا القرارات التي اتخذها المؤتمر باطلة، ولم يرض والدي الذي اتهمني بالخيانة والعقوق. وحده الجنرال اللنبي اقترح على حكومته الاعتراف بي ملكًا على اتحاد يضم سوريا والعراق وفلسطين، فاشترط اللورد كورزن أن أعترف لفرنسا وبريطانيا بمراكزهما في سوريا وفلسطين.

كنت راغبًا في السفر إلى أوروبا مع اقتراب موعد انعقاد مؤتمر السلم في سان ريمو، ولكن الشروط التي وضعها الحلفاء عرقلت سفري، ورفض المتشدّدون ذهابي بحجة الحفاظ على هيبة الملك. انعقد المؤتمر بغياب العرب وأقرّت الانتدابات على البلاد.

هاجت دمشق، ولم يجد المتشددون غير حكومة الركابي يتهمونها بالضعف والتساهل، ووجدت نفسي مرة أخرى راضخًا لمطالبهم. استقال الركابي فكلفت هاشم الأتاسي وسميت يوسف العظمة وزيرًا للدفاع والشهبندر للخارجية وكان برنامج الحكومة: الاستقلال ورفض الوطن اليهودي وكل تدخل أجنبي.

كانت الأحوال العسكرية تنذر بالخطر. تواصلت عمليات العصابات ضد الفرنسيين الذين وجدوا صعوبات في نقل جنودهم

وعتادهم لدعم جيشهم الذي يقاتل ضد الأتراك، وجرد غورو حملات إرهاب ضد الأهالي في جبل عامل والحولة، واضطر إلى عقد هدنة مع الأتراك وباشر سحب قواته إلى لبنان. أدركت لحظتها خطورة الوضع وقررت أن أتحرك.

نويت أن أذهب إلى أوروبا سعيًا إلى تفادي الصدام، أوفدت نوري السعيد إلى بيروت ليباحث الجنرال غورو بشأن سفري، ولكن نوري رجع على عجل وطلب مقابلتي ليخبرني بأن غورو لن يوافق على سفري قبل أن أوافق على شروطه.

(٢٠)

كان لا بد من وداع آخر. شعرت بالحماسة حين أخبرني تحسين قدري بأن أول باخرة مغادرة إلى إيطاليا ستبحر من بور سعيد بعد يومين، هيأت نفسي وتوجهت إلى فندق نصار حيث يقيم من تبقى من الرجال. كنت أمازحهم فيستجيبون لمزاحي بإطلاق ضحكاتهم وتعليقاتهم الساخرة، لكن السخرية لم تكن لتبدد القلق الذي استولى عليهم، لم يكن أحد من الحاضرين ليعرف من أمر غده شيئًا. قرر بعضهم أن يمضي إلى شرق الأردن وبعضهم الآخر إلى الحجاز، وقرر عدد قليل أن يرافقني في القطار إلى مصر ليستقر فيها، ولم يكن للفلسطينيين غير البقاء في أراضيهم. وحين عدت إلى مقر إقامتي كانت الحماسة قد غادرتني واحتل القلق كياني، فبت ليلتي مفكرًا حتى ساعة الفجر قبل أن يغلبني النوم.

لم يكن عدد الذين جاءوا لوداعي في محطة حيفا ليتجاوز العشرين شخصًا. صافحت كل واحد بمفرده كأنني أودعه للمرة الأخيرة، وحين صعدت إلى القطار فكرت متسائلًا إذا كنت سأرى هذه البلاد مرة أخرى؟! كانت حرارة شهر آب تزيد من اختناق

الهواء في المقصورة التي تضمني مع زيد المشغول في النظر عبر النافذة إلى الحقول التي يطويها القطار. لأول مرة ألمح علامات القلق على وجهه الفتيّ. كان في الثامنة عشرة من العمر حين انضم إلى الثورة، قاد المعارك ودخل معي إلى دمشق وحل مكاني خلال فترات غيابي، لكن التجارب والمسئوليات لم تصده عن الاستسلام للهوه. كان أقرب إخوتي إليّ منذ صغره، أميل بعاطفتي نحوه فأتغاضى عن هفواته. لقد كبر زيد قبل أوانه وألمح في عينيه نظرات كهل اختبر العمر والسنوات، السنوات التي أضافت إلى عمري أعمارًا عديدة، فقد صار السفر يضنيني كأنني عجوز.

أخذتني مشاهد الحقول والقرى دون أن يعيرها القطار اهتمامه بعد أن ابتعد عن الساحل. مرات عديدة عبرت هذه البلاد دون أن يتسنى لي التنبه إلى جمالها وغناها، في كل مرة كان ثمة ما يشغلني عن تأمل البيارات والقرى، لعلني سافرت ليلًا أو أن البلاد قد تغيرت، أشياء كثيرة تغيرت في مدى سنتين أو ثلاث مضت. ما كنت أحسب أن مصيري سيقودني ملكًا منفيًّا يجلس في مقصورة يتأمل الحقول تمضية للوقت، ويتأمل في نفسه علّه يكتشف سر انتصاراته وإخفاقاته، سحره وخيبته، دون أن يكون متأكدًا من خطوته التالية إذا كانت ستقوده إلى أمل جديد أو إلى منفى جديد يقضي فيه بقية عمره.

مضى القطار في سيره الرتيب قبل أن يتمهل عند وصوله إلى محطة اللد. توقّف ولم أكن أتوقع توقفه في هذه المحطة، كنت لا أزال أنظر عبر النافذة حين لمحت جنودًا متأهبين يحملون السلاح في حال استعداد. انتابني الخوف وتيقّنت في نفسي أنهم

حضروا لإيقافي ومنعي من متابعة سفري. كنت أتبادل النظرات الصامتة مع الذين يشاركونني المقصورة وقد بدا القلق على وجوه الجميع، لم يكن أحد ليعرف سبب هذا التوقف المفاجئ في محطة اللد التي امتلأت بالجنود. دخل ضابط حسبت للحظة أنه جاء لاعتقالي لكنه سرعان ما أدّى التحية واستأذن بمرافقتي. كانت ثلة من الجنود تستعد لاستقبالي بالمراسم التقليدية. نزلت من القطار وقد انتابني التأثر حين استعدّ الجنود المصطفون لإلقاء التحية. كنت مضطرب الأفكار والمشاعر، فلا أعرف حقيقة ذاتي، هل أنا ملك أم منفيّ مطارد؟

كان هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني بانتظاري. سرنا سوية نستعرض الحرس، وحين انتهت المراسم تقدّمني ليفسح لي المجال في الدخول إلى قاعة من قاعات المحطة. كانت غرفة بلا نوافذ سوى واحدة تطل على الرصيف الممتلئ بالجنود الذين مكثوا في مطارحهم مستعدين لإلقاء التحية لحظة خروجي. لفتتني في تلك الغرفة العارية من كل زخرف والتي لا يشغلها سوى بضعة مقاعد خشبية وطاولة، الخارطة التي عقلت على الجدار قبالتي والتي تظهر سكك الحديد كخطوط سوداء تخترق البلاد، وتصل ما بين الداخل والساحل وفلسطين والحجاز، لم تكن حدود الانتدابات قد عيّنت فوق الخارطة التي يعود تاريخها إلى بضع سنوات سابقة. سألت نفسي إذا كان زمن طرق الحديد يوشك على الأفوال مثل أفول ثورتنا؟

بدأ السير صموئيل الكلام فور جلوسه، فأخرجني صوته الحاد من شرودي، قال إن الخارجية البريطانية مشغولة في مفاوضاتها،

وترغب في عدم إحراجها في الوقت الراهن بتعقيدات الوضع في سوريا. لم ينتظر سماع رأيي الذي يعرفه، فانتقل مباشرة ليتحدث عن أوضاع المنطقة بعد دخول الفرنسيين إلى دمشق قبل أن يتوقف في كلامه عند مهمته في فلسطين مبديًا أسفه للصدامات التي وقعت بين الفلسطينيين واليهود. قاطعته وقلت له إن تسليح اليهود سيجرّ إلى مشاكل كبيرة في المستقبل القريب، طلب إليّ أن أعمل على التهدئة وأعلن موقفًا بهذا الشأن. أجبته بأن وضعي بعد خروجي من سوريا لا يسمح لي بإبداء رأي أو موقف.

خرجت من اللقاء مكتئبًا وعدت إلى مقصورتي فيما القطار يهم باستئناف رحلته، لو قدر لي أن أقوم بهذه الرحلة قبل شهرين لتبدلت أمور كثيرة.

كنت أنوي السفر حين أرسل لي غورو شروطه التي أبلغني نوري مضمونها شفاهة. كانت شروطًا مستحيلة التطبيق، فمن الذي سيرضى بإلغاء التجنيد ووضع سكة رياق تحت تصرف الجيش الفرنسي وفوق ذلك قبول الانتداب؟

انفجرت دمشق غضبًا حين انتشرت أخبار الشروط بين الناس، وخرجت التظاهرات تدعو إلى القتال ورمي الفرنسيين في البحر! أرسلت نوري مرة أخرى إلى بيروت عله يقنع الجنرال بتعديل شروطه، وحمّلته اقتراحًا بتشكيل لجنة دولية لحسم الخلاف بيننا، لكنه رفض وتشدد في شروطه، طلبت وساطة الإنكليز فعمدوا إلى سحب ممثلهم من دمشق، وتركوني أجابه الفرنسيين وحيدًا.

ساد الهياج دمشق وأعلن يوسف العظمة عزمه على التصدي للفرنسيين فزاد قراره في حماسة العامة. وأعطى لقيادات الفتاة واللجنة الوطنية حججًا لاسترسالهم في الدعوات إلى التجنيد والقتال. اقترحت على ياسين الهاشمي منصب قيادة جبهة دمشق لكنه رفض، وحين سألته عن أسبابه قال إنها مهمة مستحيلة، الثكنات فارغة وليس لدينا من الذخيرة ما يكفي للصمود في ميدان القتال أكثر من دقائق.

كانت تلك أصعب اللحظات التي واجهتها، الدفاع مستحيل والشقاق بين الأحزاب ينذر بالفتنة، في الوقت الذي كانت فيه اللجنة الوطنية مع الفتاة تديران التظاهرات وتدعوان إلى القتال، قرر الحزب الوطني إجراء الاتصالات بالفرنسيين لدعوتهم إلى دخول البلاد سلمًا. اتصلت بجميع الأطراف أدعوها إلى التهدئة. ودعوت الحكومة إلى اجتماع لأعرض حصيلة المفاوضات مع غورو وحقيقة الأوضاع في البلاد. وافق الجميع على قبول الشروط ما عدا يوسف العظمة الذي تغيب عن الاجتماع. أرسلت إلى غورو أعلمه بقبول شروطه لكنه ردّ بأنه ينتظر كتابًا مفصلًا. كنت أسعى إلى إطالة أمد المفاوضات وكسب الوقت، لكن الوقت لم يعد إلى جانبي، في كل لحظة كانت الأخطار تتفاقم والبلاد تفلت من يدي. بدأ المتظاهرون يرددون الشعارات التي تدين المستسلمين، وكان نوري على رأس قائمة المتهمين بالتفريط والخيانة، وزادوا في شعاراتهم دعوتي إلى مغادرة البلاد والعودة إلى الحجاز. ملأت الشكوك نفسي وتيقّنت من

أنهم يحضّرون لانقلاب ضدي لتنصيب العظمة حاكمًا عسكريًا والإطاحة بالملك والملكية.

اجتمع أعضاء المؤتمر وأعلنوا رفضهم الشروط والإنذار، ورفضت الأحزاب الإنذار ودعت إلى القتال، ولم يتوانَ العامة من الناس عن الخروج كل يوم في تظاهرات، فدخلت البلاد في الاضطراب وبلغ التوتر ذروته. أما أنا فلم أعد قادرًا على النوم أسابق الوقت لتفادي الهزيمة ومنع الانفجار.

كنت خائر القوى، على حافة الانهيار حين جاء من يبلغني بأن وفدًا مشتركًا من الفتاة واللجنة الوطنية يطلب موعدًا لمقابلتي.

سيطر الغضب والهياج عليّ حين دخل الوفد الذي استقبلته واقفًا في بهو القصر. لم أشك بأنهم جاءوا يطالبونني بالتنحي، فأوعزت إلى زيد بالاستعداد، وطلبت من الكحيمي أن يتأهب مع حرسه.

بدأت كلامي ممازحًا كعادتي، علّني أغالب الغيظ الذي يشعل صدري، كنت أتفرس في وجوه القصاب ودروزة وداغر، أركان التطرف الذين يتشددون في كل مناسبة، يريدون كل شيء أو لا شيء على الإطلاق. طالبوا اللجنة الأمريكية بالاستقلال التام حتى أثاروا حفيظة حلفائنا، رفضوا اتفاقي مع كليمنصو وكان أقصى ما يمكن أن نحصل عليه، أعلنوا الاستقلال والملكية ولم يهيئوا وسائل الدفاع عن المملكة وعرقلوا سفري إلى أوروبا فقرر الحلفاء الانتدابات دون حضور أي ممثل للعرب، وها هم يأتون اليوم حاملين مطالبهم يريدون دفعي إلى الخروج أو الموت.

قلت، حين لم أعد قادرًا على كتم غيظي وتوتري: أنتم أهل هذه البلاد، ولكم أن تقرروا ما تشاءون، فإذا ارتأيتم أن وجودي بينكم لم يعد يجدي، وأنكم في غنى عنّي فلن أتردد لحظة في العودة إلى الحجاز.

حاول أحد أعضاء الوفد أن يتدخل، فلم أترك له مجالًا للقول، إذ انفجرت صارخًا: لقد دخلت هذه البلاد فاتحًا ولن أخرج إلا بالقوة، فإذا كانت لديكم القوة لإخراجي فافعلوا ودمي ودماؤكم في الشارع.

تقدم أسعد داغر صوبي وفي يده مغلف وكذلك فعل الشيخ القصاب، كل واحد يريد أن يقرأ المقررات التي اتخذها حزبه، لكنني تابعت: تريدون الحرب، ولا نملك سلاحًا ولا ذخيرة، فإذا كنتم مصرين على القتال فتسلموا الحكم وأنا عائد في هذه اللحظة إلى مكة.

تراجعت خطوتين وجلست على أول مقعد بعد أن خارت قواي من الإجهاد والغضب. فكرت في نفسي أنها النهاية، فلم أعد أقدر على فعل شيء، استبد الصمت بالقاعة ولم أعد أسمع غير صوت لهاثي، فتقدم أسعد داغر صوبي مستأذنًا وقال: كل ما نريد يا جلالة الملك أن تكون المفاوضات على أساس المبادئ التي عملنا من أجلها، وأن يكون الاستقلال هو مطلبك.

شعرت في داخلي بالحزن على نفسي وعلى البلاد، كأننا نستطيع أن نكسب الاستقلال بالشعارات وأن نصد المدافع

بالتظاهرات. قلت وقد ملأ الأسى قلبي: عملنا سويّة ولا بدّ أن نتابع سويّة كما بدأنا.

انصرف الوفد، وعدت إلى غرفتي ووحدتي. كنت محكومًا بإكمال مهمتي حتى اللحظة الأخيرة، لعلني أقدر أن أتدارك الكارثة قبل وقوعها.

(٢١)

كان القطار لا يزال يتابع سيره بين اللد التي غادرها والقنيطرة التي يقصدها قبل غياب الشمس. تسرب الملل إلى نفسي. فلم تكن الأحاديث المتقطعة بين الذين يشاطرونني المقصورة لتصرفني عن أفكاري وهمومي.

عبر القطار العريش متابعًا سيره بين البحر والصحراء. سألت نفسي سؤالًا لم أجرؤ عليه من قبل: ترى، هل كان الأمر يستحق كل هذا العناء؟ رفعنا راية العروبة واندفعنا في حربنا ضد الأتراك، وها هي البلاد التي سعينا إلى وحدتها واستقلالها قد تقطعت أوصالها وتبعثر الرجال في المنافي، أنا في طريقي إلى المجهول ووالدي مهدد بالخروج من دياره في كل لحظة!

تغيرت الأمور في مدى سنتين، انهارت دول وقامت أخرى ولم يبق من السلطنة غير الاسم ولن يلبث مصطفى كمال أن يعلن موتها. اختفت إمبراطورية النمسا كأنها لم تكن. تغير العالم في مدى أشهر كأننا انتقلنا من زمن إلى آخر، غادرنا العالم القديم دون أن نلحق

بالعالم الذي يُصنع في أروقة السياسة والقاعات المغلقة. لم أعد أعرف ذاتي وماذا أريد؟ ولم أعد أعرف إذا كانت أحلامنا تنتمي إلى عصر غابر أم أن أوانها لم يأت بعد؟!

بدأ القطار يبطئ في سيره قبل أن يصل إلى القنيطرة، لاحت أمامي القنال كأنها خيط من الماء وسط الرمال. السفن تعبرها بهدوء وحرارة الصيف قبل المغيب تقاوم نسمات المساء. استعجلت خروجي من القطار بعد ساعات من سفر أتلف جسدي المتعب، بينما انهمك زيد وراسم بإخراج الحقائب.

وقفت فوق الرصيف وحيدًا، لم يأت أحد لاستقبالي؛ تجاهل الجنرال اللنبي وصولي إلى مصر، وتجاهلت الحكومة المصرية عبوري أراضيها، جلست على حقائبي منتظرًا وصول عبد الملك الخطيب مندوب والدي في مصر. كنت أشعر بالإرهاق والإهانة وسط ضجيج المسافرين، لم يلتفت إليّ أحد، ولم يتنبه أحد إلى ملك يجلس فوق حقائبه وسط مئات المسافرين.

كنت لا أزال منتظرًا، أسعى إلى إخفاء هويتي، حين حضر عبد الملك الخطيب، أقبل نحوي وقبل يدي واعتذر عن تأخره. سألني عن صحتي وأحوالي وأعلمني أن الهجانة الحجازيين الذين عادوا إلى مكة عند مغادرتي درعا أخبروا بما رءوا من وقائع، وأن الشريف ناصر الذي زار والدي وأخبره بكل ما جرى. غضب والدي ولامني على تصرفاتي وعدم سماعي نصائحه، فلو لم أرض باستقلال سوريا وتنصيبي ملكًا وانفصالي عن الحجاز لما تجرأ الفرنسيون على فعلتهم.

كنت أستمع دون أن أعلق بكلمة، لم يقل شيئًا لم أكن أتوقعه، حتى الوصايا التي أرسلها إليّ والدي لم تتغير، لا تكلم غير الإنكليز ولا ترض بغير رسائل مكماهون أساسًا للتفاوض.

خرج والدي من الزمن وتاه في نفق عزلته، وما زال يظنني ولدًا لا يحسن التصرف. قلت للخطيب بعد أن فرغ من تلاوة نصائح والدي ووصاياه بأنني آمل بترتيب مع الفرنسيين يمكنني من العودة إلى سوريا. فدعا لي بالتوفيق وسلمني شيكًا بقيمة خمسة وعشرين ألف جنيه أرسله لي والدي، وهو أشد ما كنت أحتاج إليه.

عانقت جعفر العسكري العائد إلى العراق، وودعت الدكتور قدري الذي قرر أن يستقر في القاهرة، كانت عيناه تدمعان حين شد على يدي وحين عانق شقيقه تحسين الذي سيبقى برفقتي. صافحت عبد الملك الخطيب الذي وعدني أن يعود غدًا إلى بورسعيد لتزويدي بجواز سفر باسم حكومة الحجاز! ملك لا يملك أن يمنح نفسه جواز سفر.

غادر الثلاثة إلى القاهرة وغادرت مع وفدي الصغير إلى بورسعيد. دخلت إلى غرفتي في الفندق وقد هدني إرهاق نهار السفر، شعرت بالآلام في مفاصلي، تناولت بعض المسكنات التي زودني بها الدكتور قدري قبل انفصاله عني وغرقت في وحدتي.

لم أشعر بالوحدة مثلما شعرت بها في أيامي الأخيرة في دمشق.

دعوت إلى اجتماع للمجلس العسكري، كنت أريد منهم رأيًا واضحًا، تداولوا في الأمر قبل أن يبلغوني قرارهم وقد اتفقوا في

الرأي: في حال قام الفرنسيون بالهجوم، فلن يصمد سلاحنا أكثر من دقائق معدودة! وكانت دهشتي أكبر حين سألت يوسف العظمة عن السبب الذي دفعه إلى إعلان المقاومة والدعوة إلى القتال أجاب: كنت أريد أن أخدع الفرنسيين حتى أردعهم عن عدوانهم.

لم يكن أمامي سوى قبول الإنذار. لم تمض ساعة حتى انتشر الخبر في كل أحياء المدينة فخرج الناس في تظاهرات يرفضون الاستسلام. وزاد الاضطراب حين أمر يوسف العظمة بحل الجيش فخرج الجنود من ثكناتهم بغير انتظام واختلطوا بالمتظاهرين الذين كانوا يطالبون بمحاكمة المسئولين واستقالة الحكومة. ساد الهرج في الشوارع وتوجهت جماعات إلى القلعة يريدون السلاح فخرج المساجين وساروا مع المتظاهرين يخربون كل شيء في طريقهم ينهبون الدكاكين ويقطعون خطوط الكهرباء والهاتف ويطلقون الشعارات التي تتهمني بالخيانة. سرت شائعة أن الحكومة قبضت على الشيخ القصاب وسجنته فزاد هياج العامة وانتشرت الفوضى ودبّ الذعر في المدينة التي سكنها الخوف. أمرت زيدًا والهاشمي حفظ الأمن بعد أن تمادت أعمال النهب والخراب، فنزل رجال الأمن ليمنعوا استفحال الفوضى، فسقط الجرحى وسقط القتلى بالعشرات.

لم يكن للمتظاهرين ضابط أو قائد. بدأت أصوات الهتافات تقترب من القصر، كنتُ في قمة غضبي حين أمرت الحراس بردع المتظاهرين من الوصول إلى الأسوار، لعلع الرصاص وسقط القتلى قبل أن يهدأ وتهدأ المدينة مع حلول الظلام.

لم أنم تلك الليلة ولا في الليالي التي تلت، بلغت أن قطعات

من الجيش الفرنسي تتقدم باتجاه المنطقة الشرقية. جمعت الوزراء لنتداول بالأمر وقررت إيفاد الحصري إلى عالية لمقابلة غورو فغادر في الصباح الباكر، لكن الحصري لم يحصل إلا على شروط جديدة، وحين رجع أبلغني بأن الفرنسيين مصممون على القتال.

جمعت الحكومة، وفي نهاية الأمر اتخذنا القرار بالدفاع انتشر الخبر، فانقلبت المدينة من حال إلى حال. عاد بعض الجنود المسرحين إلى ثكناتهم، وخرجت التظاهرات مجددًا تدعوا إلى القتال وقد نسي المتظاهرون ثورتهم وقتلاهم الذين سقطوا في الأمس، ما أشد نسيانهم، يعتقدون أن الحرب نزهة وأن النصر في متناول أيدينا.

أرسلت من يتفقد الجرحى في المستشفيات، وعينت لجنة لإعادة المنهوبات إلى أصحابها وأمرت بإصلاح أعطال الهاتف والكهرباء. استدعيت الشيخ القصاب وطلبت إليه أن يبذل همته في حشد القوى الوطنية للقيام بمهمة الدفاع. طلبت إلى إدارة سكة الحديد أن تسيّر قطارًا كل ساعة لنقل المتطوعين إلى جبهة القتال. خرج أبناء المدينة إلى محطة الحجاز، وتجمع شباب كل حارة على حدة يحملون العصي والبنادق والسكاكين ويحملون زواداتهم وسار في ركابهم الصبيان، وخرجت بعض المتطوعات بلباس الميدان، وقصد الجميع ميسلون يريدون الدفاع عن بلدهم.

رجع الشيخ القصاب لمقابلة الهاشمي، وأخرج من جيوبه طلقات قال إنه اشتراها من أسواق دمشق مع ما جمعه من أموال المتبرعين. شكره وطلب إليه أن يستمر في بذل جهوده. كان

الهاشمي يبتسم ابتسامة ساخرة مثقلة بالمرارة حين دخل إلى مكتبي ليخبرني ما كان من شأن القصاب ورصاصاته التي جمعها ويريد أن يقاتل بها الفرنسيين.

في اليوم الأخير الذي سبق المعركة خرجت من القصر وسرت في شوارع دمشق التي دبت فيها الحركة. توجهت إلى المسجد الكبير لتأدية صلاة الجمعة، دخلت وسط الناس وجلست بين المصلين حتى انتهى الخطيب من خطبته، صعدت إلى المنبر والأنظار موجهة نحوي وقد خيم الصمت، قلت: أردت أن أمنع عنكم زحف جيش الأعداء بإجابة مطالبهم فلم يرتدوا فإن كنتم بحاجة إلى بلدكم فاخرجوا للدفاع عنه.

خرج المصلون من المسجد يكبرون ويرددون الهتافات، دبت في الأسواق الحركة وامتلأت المحلات بالمتسوقين يتزودون بمئونة أيام المعركة، ارتفعت الصيحات التي تدعوا إلى الصمود والقتال وتدعوا لي بالنصر على الأعداء.

عدت إلى القصر وقد بلغ التوتر ذروته. كان القادة والوزراء في حركة دائمة، وفي المساء حضر يوسف العظمة لوداعي، استأذن بالمغادرة إلى جبهة القتال، وحين أذنت له تقدم صوبي وقال لي بما يشبه الرجاء إنه يترك ابنته الوحيدة أمانة لديّ. شعرت بالألم يقبض صدري وقد تيقنت من أنه قرر الاستشهاد.

بتُّ ليلتي ساهرًا، وقبيل الفجر لبست بذّتي العسكرية وخرجت صوب أرض المعركة.

(٢٢)

وصلت إلى مرفأ بورسعيد وسط الازدحام الذي لا يضاهيه سوى ازدحام إستامبول ومرسيليا. بورسعيد تضج بالحياة مثل المدن البحرية، مثل بيروت وحيفا، لكن الضجيج هنا أشد من أي مكان آخر. كنت معتمرًا كوفيتي وقد خلعت بذّتي العسكرية إثر وصولي إلى حيفا قبل ثلاثة أسابيع. لعل الناس هنا يظنونني تاجرًا قدم من الحجاز، فلا ينظرون إليّ ولا يهتمون لأمري، وقد اعتادوا اختلاف الأزياء والسحنات حيث يختلط المصريون بالإنكليز والهنود بالسود والحجازيون بالشاميين واليونان، تعرفهم من سحناتهم ولكناتهم وأزيائهم، طرابيش للأفندية وقبعات للأوروبيين. لم أحب الطربوش، أذكر أني كنت في أمسية بعد إعلان الملكية بأيام، سألت الحضور عن رأيهم باستبدال القبعة بالطربوش، كانت الآراء موافقة، ودهشت حين أخبرت في اليوم التالي بأن بعض الناس خلعوا طرابيشهم وساروا في الشوارع وعلى رءوسهم القبعات. كنت أريد أن أبني المدارس والمستشفيات والمصانع، أن أزرع الأرض وأشق الطرقات، داهمني الوقت، ولم يمهلني الأعداء ولا ساعدني الأصدقاء.

قدمت جواز سفري إلى رجل الأمن الإنكليزي، فرده إليّ دون أن ينظر إلى وجهي. انتظرت قليلًا قبل الصعود إلى الباخرة حتى تنتهي إجراءات الجمارك وإدخال الحقائب. كنت أشعر وجواز السفر لا يزال في يدي بأنني شخص جُرِّد من المُلك، وشعرت بالأسى يشق صدري.

دخلت إلى المقصورة التي أعدت لي، كانت الباخرة الإنكليزية القادمة من أوستراليا مبحرة صوب نابولي حيث أحط رحالي لأمضي من هناك إلى سويسرا. كنت أفكر بما ينتظرني عند وصولي إلى أوروبا وتيقنت في سريرتي أني أسافر إلى المجهول. ومع ذلك لم يساورني الشك بأن السفر هو فرصتي الوحيدة والأخيرة. لم أكن قادرًا على البقاء في فلسطين التي يستعجل هربرت صموئيل مغادرتي أراضيها حتى لا يصبح مقر إقامتي مركزًا للفلسطينيين المناهضين لمشاريعه. ولم أكن لأقدر على البقاء في درعا أو معان مقطوعًا عن العالم وسط العشائر التي تنتظر أن أزوّدها بالمال والسلاح. وكان يستحيل أن أمضي إلى الحجاز حيث سيكون عليّ أن أستمع كل صباح ومساء لتوبيخات والدي.

كانت الباخرة تعج بمسافرين من أقوام مختلفة، شعرت ببعض الارتياح بعد أن انتظمت الحياة فوق سطحها. حل وقت الغداء فدخلت المطعم مع رفاق سفري، تقدم نحوي، بعد أن اتخذت مكاني خلف طاولة مستديرة كبير الخدم ينقل إليّ تحيات قائد السفينة.

عجيب أمر هؤلاء الإنكليز، في كل مكان يذهبون إليه ينقلون معهم عاداتهم ونظامهم، حتى بدت الباخرة العائمة وسط البحر

كأنها حيّ من أحياء لندن. كان الطقس الحار قد أغرى عددًا من الركاب بالخروج للاستمتاع بالشمس الساطعة فوق المتوسط. جلستُ أتأمل في هذا المجتمع الذي تكون خلال توقف الباخرة في مرافئ عديدة، فكان أشبه بمصغر للإمبراطورية الإنكليزية، ففي رحلتها من أوستراليا جمعت في طريقها مسافرين من الأوستراليين والهنود والصينيين والعرب، يتحدثون بلغة إنكليزية تميزها لكنات تشي بجنسيات متحدثيها.

أشعرتني الساعات الأولى من السفر بأحاسيس جديدة لم أتعود عليها، كأنني لأول مرة منذ سنوات أتفلّت من المسئولية وقد صرت حرًّا من المواعيد والاجتماعات. منحني الشعور بالحرية شيئًا من القوة، قوة النظر إلى الدنيا بعين جديدة. في ساعة تناول الشاي قررت أن أخلع العباءة والكوفية حتى لا أبقى عرضة للأنظار. ارتديت بذلة أوروبية أعدت لي خلال زيارتي الأخيرة إلى أوروبا قبل تسعة أشهر. كنت في باريس حين ارتديتها للمرة الأولى، وقد بدت الدهشة يومها على وجه رستم حيدر الذي بادرني قائلًا: سيدي لو جاء أحد يطلب منك لبس هذه البذلة قبل بضعة أشهر لطردته من منزلك، أجبته يومها أن للضرورة أحكامًا. وقد سئمت من النظرات التي تتفحصني كلما خرجت والكوفية فوق رأسي.

خرجت من مقصورتي إلى سطح الباخرة حيث أقيم ما يشبه مقهى. كان رفاق سفري بانتظاري وقد لمحت على وجوههم علامات الاستغراب. جلست فوق مقعدي وقلت محاولًا أن أبدد تساؤلاتهم: سأعفي كوفيتي وعقالي من النظرات المتسائلة والمستغربة.

كانت نفسي ميّالة إلى مراجعة الماضي بانتصاراته وإخفاقاته، وكأن عدوَى رغبتي انتقلت إلى الحصري الذي أخذته نزعة لتفحص الماضي، قال: أتينا من جهات مختلفة لنلتقي في دمشق التي عشنا فيها في ظل أول دولة عربية حديثة. قاطعه الجابري كأنه يريد أن يصحّح: لقد جمعتنا إستامبول من قبل دون أن يلتقي أحدنا الآخر، ثم عادت الظروف لتجمعنا في دمشق التي خرجنا منها إلى هذا المركب. صمت لحظة ثم أضاف: إن العروبة لتشبه هذا المركب الذي يسير وسط الأمواج المتلاطمة.

قال نوري الذي كان يستمع: المهم أن نصل إلى نابولي، المستقبل أهم من الماضي.

لكن الحصري عاد ليقول كأنه يردّ على الجابري: لقد اخترت أن أغادر إستامبول بعد طول تفكير، ولست نادمًا على قراري، فقد استعدت لغتي وجذوري حين رجعت إلى دمشق.

ـ حتى صرت وزيرًا للمعارف، قلت له مقاطعًا.

ـ هذا بسبب ثقة جلالتكم.

ـ لقد تسببت بالمشاكل وأثرت المحافظين.

ـ ما زلت أظن أن العروبة لا بدّ لها أن تنتمي إلى العصر، وبالرغم من الهزيمة فإن العروبة ستنهض مجددًا.

ـ لو أحسنت مفاوضة غورو لما وقعت الهزيمة. قلت ممازحًا.

ـ لقد شرفني جلالتكم بهذه المهمة. ولا بدّ لي من أن أسجل وقائعها في يوم من الأيام.

ـ ما الذي ستقوله عني؟ سألته.

أجاب:

ـ إن التاريخ سينصفك.

ساد صمت قصير بعد أن أنهى الحصري عبارته، قلت، كأنني أخاطب نفسي: لقد ارتكبنا أخطاء كثيرة بسبب نقص خبرتنا واستبداد كل طرف برأيه. كنت لا أزال في العقبة حين كانت الرسائل تصلني يشكو فيها قادة الرأي والأحزاب بعضهم بعضًا. ظننت وقتها أن النصر سيغير طبائعنا، لكن الفرقة استفحلت والانقسامات تكاثرت. أعرف أنني لم أكن حاسمًا، كنت أريد أن أقنع كل طرف برأيي وما أعتقده الصواب. كان بإمكاني أن أضرب على أيدي المتشددين الذين أضاعوا الأمة، ولكنني لم أفعل خوفًا من أن أستبد، ولو فعلت لانصاع الجميع إلى أمري. كنت أذهب مضطرًا إلى أوروبا فأغيب الأشهر، وحين أعود أجد الأمور في البلاد قد أفلتت ونزعات الانقسام قد ازدادت، فأسعى جاهدًا إلى لمّ الأطراف وجمع الفرقاء. لم نحسن سياسة أمورنا ولم نقدر على حفظ حلفائنا. لا أنكر مسئولياتي عما جرى، ليس عن الأخطاء فقط، ولكن عن الانتصارات أيضًا. لقد قدت جيش الشمال الذي دخل دمشق وحقق النصر وهناك أقمنا دولتنا. كانت تشبهني في أخطائي وعيوبي وترددي وتسامحي. وكان أبرز عيوبها أنها لم تظهر الحزم والشدة. لكن من الخير ألف مرة أن تكون العروبة متسامحة بدل أن تكون متعصبة أو متطرفة.



(٢٣)

لست أدري إذا كانت رحلتي البحرية هي التي منحتني بعض الراحة، أم أن تخففي من المسئولية هو الذي جعلني خالي البال. استيقظت صباح اليوم الثاني من رحلتي هادئ المزاج، طلبت فنجانًا من القهوة حين خرجت إلى مطعم الباخرة، حيث حضر عدد من المسافرين لتناول فطور الصباح. كنت أحمل معي بعض الصحف المصرية التي طلبت من تحسين أن يشتريها حين كنا لا نزال في ميناء بورسعيد. المصريون ميالون إلى إطالة المقالات والجدالات الفكرية ولا قدرة لي الآن على متابعتها. أعرف أني لم أكن ميالًا في يوم من الأيام إلى المصريين. التحق عدد قليل منهم بالثورة دون أن تربطني بأي واحد صداقة، ولم تربطني بأي فرد من الأسرة المالكة علاقات على غرار ما كان لعبد الله مع الخديوي وأفراد أسرته من الأمراء.

لم نكن على اتفاق مع المصريين، حين قامت ثورتنا. كانوا يمدون يدًا خفية إلى الأتراك بسبب كرههم للإنكليز الذين يشغلون بلادهم، كنت في باريس حين قامت الثورة في مصر، فانشغل العالم

بأخبارها. عرفت شيئًا عن مطالبهم. كانت مطالبنا بالاستقلال واحدة، ومع ذلك لم نستطع أن نلتقي. المصريون على حق إذ يطلبون الاستقلال، فمن يتعامل مع الإنكليز لا بد أن يثور عليهم في نهاية الأمر.

إني حانق على الإنكليز في سريرة نفسي، لقد بذلت من أجلهم كل شيء حتى اتّهمنا أنا ووالدي بالرضوخ والخيانة، وحسبني بعض خصومي ألعوبة في أيديهم، ولم أحصد منهم نتيجة سوى الخيبة. لن أبقى رهينة لصداقتهم وسياستهم. أشعر الآن أنني حرّ في اختيار حلفائي وأصدقائي، حررني خروجي من دمشق من كل التزاماتي السابقة، ولن يلومني أحد إذا مددت يدي إلى الأتراك أو الألمان، وإذا اضطررت وسُدّت الأبواب في وجهي، فإنني أصبح بولشفيًّا ولا أعود إلى الحجاز.

كنت أهم بالوقوف حين تقدمت صوبي سيدة، استأذنت، فدعوتها للجلوس. قالت بعد أن اتخذت مقعدًا قبالتي: سمعت أن ملكًا يسافر معنا، وحين عرفت أنه جلالتك وددت أن أراك وأكلمك، لأن والدي حدثنا عنك بعد أن التقى بك في إحدى الدعوات في لندن قبل حوالي السنة.

سكتت لبرهة، كانت تنظر في وجهي حين قالت: وجدت صعوبة في التعرف إليك بدون زيّك التقليدي الذي رأيت صورتك فيه منشورة في الصحف الإنكليزية.

شكرتها على لطفها، وسألتها عن نفسها، اعتذرت قائلة: كان يجدر بي أن أعرف بنفسي في البداية. مس هارولد، ابنة مستر

هارولد عضو البرلمان. لقد التقى بك في قصر بكنغهام وقد سمعته مرارًا يتحدث عنك.

أجبتها: يسعدني أن ألتقي به مرة أخرى.

قالت: كن على ثقة يا جلالة الملك أن لك أصدقاء كثيرين في بريطانيا.

قلت لها دون تفكير طويل: لقد ازداد أصدقائي في هذه اللحظة بكل تأكيد.

ابتسمت وقالت: يشرفني أن تعدّني من أصدقائك.

أخبرتني المس هارولد أنها جاءت إلى القاهرة قبل شهرين في زيارة لشقيقتها المتزوجة من أحد رجال الإدارة الإنكليزية في مصر. قالت إنها المرة الأولى التي تزور مصر وقد أدهشتها الصحراء والآثار الفرعونية، مثل كل السيدات الإنكليزيات اللواتي يتحدثن عن الصحراء والنيل والآثار القديمة. كنت أتامل وجهها، وقد بدت لي في الثلاثين من عمرها، قد رفعت شعرها الأشقر وبدا عنقها الأبيض الذي تلون بحرارة الشمس.

سألتني إذا كنت سأزور بريطانيا في رحلتي هذه؟ فاجأني سؤالها، وقلت لها بعد تردد: يتوقف الأمر على الخارجية الإنكليزية ودعوتها لي.

قضيت ساعات بعض الظهر في مقصورتي وقد بدأ الملل يتسرب إلى نفسي كعادتي، لا أحتمل هذا السفر الطويل وساعاته المضجرة. وأعادت الوحدة لي بعض القلق حين أخذت أفكاري تتجه إلى ما ينتظرني بعد وصولي إلى نابولي.

خرجت أول المساء إلى مطعم السفينة، وقد شعرت ببعض مقدمات الجوع، وتنبهت إلى أني لم أتناول طعامًا طيلة النهار. كان جميع رفاق سفري بانتظاري، وقد تركوا لي مكانًا عند رأس الطاولة التي تحلقوا حولها. لفتت انتباهي عند دخولي القاعة الفسيحة التي كانت أشبه بصالة احتفال تستعد للسهر، لمحت عازف البيانو يحرك أصابعه فوق المفاتيح فيرسل ألحانًا سبق أن سمعت بعضها. كانت أنظار بعض رواد المطعم تتجه إليّ عندما هممت بالجلوس، لا بدّ أن خبر سفري قد انتشر بين ركاب السفينة.

كنت أخط في المساء بعض هذه الأوراق التي اعتدت تدوينها منذ خروجي من دمشق حين سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، كانت المس هارولد، لم أتعرف إليها للوهلة الأولى، فقد بدت سيدة أخرى بفستانها الأسود وقد أسدلت شعرها فوق كتفيها، ولا أنكر أن حضورها قد أفرحني.

تعلمت كيف أداري ارتباكي في مناسبات مماثلة، دعوتها للجلوس فوضعت حقيبتها فوق الطاولة بعد أن وضبت أوراقي. كان فستانها الأسود قد أظهر بياضها الإنكليزي المشوب بحمرة الشمس. ولست أدري إذا كان جمال السيدة الإنكليزي هو الذي يجذبني أم أناقتها وحضورها، ولست أعرف ما الذي يجذبهن إليّ، شخصي أم لقبي، ملامحي أو رغبتهن في خوض مغامرة.

قالت المس هارولد، وكأنها قرأت أفكاري: إنها تجربة فريدة أن تجمعني الفرصة مع ملك في غرفة واحدة، ليس كونك ملكًا

ما يجذبني إليك، ولكني تيقنت من جاذبيتك التي طالما سمعت عنها في لندن.

شعرت بالخجل، ولم أعرف ماذا أقول، إن ما ينقصني عادة مع الغربيات هو المبادرة، هوّنت عليّ قائلة إنها ستكون سعيدة لو استطاعت أن تمضي أطول وقت معي.

لم أكن في وضع أرفض فيه رغبة سيدة إنكليزية. كنت أتساءل حين أخرجت من محفظتها علبة سكائر مذهبة، واستأذنت بإشعال سيكارة: هل حقًّا هي ابنة سير هارولد أم أنها متطفلة أو أن أحدًا قد أوحى لها بتعقبي؟! إن حقيقتها لم تكن لتهمني حين أشعلت سيكارتها ووضعتها بين شفتيها لتأخذ نفسًا عميقًا قبل أن تنفث الدخان الذي ملأ أجواء المقصورة الصغيرة.



(٢٤)

في اليوم الذي سبق وصولنا إلى نابولي جمعت الفريق الصغير الذي يرافقني في سفري لنفكر سوية في المستقبل القريب الذي ينتظرنا. كانت بضعة خواطر تشغلني، ماذا لو فشلت في عصبة الأمم ولم أقدر أن أقنع الدول بقضيتي؟ أعرف أن الفرنسيين سيقاومون كل مسعى أقوم به. فقد أصبح عداؤهم لي سافرًا. كنت قلقًا من موقف الإنكليز وتجاهلهم لي، ولم تكن لديّ بدائل كثيرة. فكرت بالأتراك، لقد سبق أن ساعدناهم خلال هذه السنة في معاركهم، ولا شيء يمنعني الآن من طلب عونهم.

قلت وقد اكتمل حضور أعواني الذين يرافقونني. لقد أضعنا فرصًا عديدة مع الأتراك بسبب انعدام الثقة بيننا وبينهم. كان بمقدورنا أن نعقد هدنة تنهي الحرب، ولو فعلنا حينها لوفرنا على أنفسنا الانتدابات وتقسيم البلاد ولغيرنا مستقبل الشرق. قدمنا للاتراك مساعدات في حربهم ضد الفرنسيين فاضطر غورو إلى عقد هدنة مع الكماليين وسحب قواته من كيليكيا ليضعها في وجوهنا، دفعنا ثمن الهدنة، ويمكننا أن نطالبهم اليوم بمؤازرتنا في محنتنا.

إنني مستعد لفتح صفحة جديدة معهم حتى لو اقتصر الأمر على تنسيق المواقف في عصبة الأمم.

تحمس زيد للاتصال بالأتراك أما الجابري فقد أبدى شكوكه، قال إن معرفته بقادة تركيا لا تسمح له بالتفاؤل. أبدى نوري خشيته من أن يؤدي الأمر إلى إثارة مخاوف الإنكليز، لكن ساطع الحصري الذي يعرف عددًا من المسئولين الأتراك أبدى استعداده للقيام بالمهمة. فطلبت إليه أن يتهيأ للسفر إلى إستامبول حال وصولنا إلى نابولي.

كان مرفأ نابولي يعج بالحركة والفوضى. لكل شعب أوروبي طباعه والإيطاليون ميّاليون إلى الجدال والهذر. قصدنا أول مقهى لنأخذ شيئًا من القهوة ولنستدل على مواعيد سفر القطارات. استأذن الحصري الذي كان متلهفًا لمعرفة أخبار البلاد بعد انقطاعنا خمسة أيام عن العالم. وسرعان ما رجع يحمل في يده جريدة وقد علا صوته وظهرت على وجهه علامات الاضطراب. قال قبل أن يجلس على كرسيه: لقد قتلوا الدروبي! كان يفك حروف الجريدة الإيطالية ويترجم لنا بكلمات متقطعة: ذبحوا الدروبي واليوسف في حوران، سوريا في اضطراب والفرنسيون يبحثون عن الفاعلين.

شغلني الخبر عن نفسي. أفكار كثيرة مرت في خاطري زادت من قلقي لحظة وصولي إلى أول محطة في سفري. قلت في سري لعل ما جرى يخدم حججي ويسهل عودتي إلى سوريا.

غادرنا إلى روما للحصول على تأشيرات، ودعت الحصري

الذي رجع إلى نابولي ليستقل الباخرة المسافرة إلى إستامبول، أما أنا فركبت القطار المتوجه إلى ميلانو في طريقي إلى سويسرا. وقبل صعودي أرسلت إلى رستم حيدر وحداد باشا أن يتوجها إلى لوسرن لملاقاتي.

لم أصل إلى لوسرن، فقد حضر إلى ميلانو حيث توقف القطار، حداد باشا مندوب والدي في لندن ليبلغني رسالة شفهية عاجلة من لويد جورج، يطلب مني أن أتمهل في السفر إلى سويسرا حتى لا أحرج الحكومة الإنكليزية في محادثاتها مع الفرنسيين، فأحبط الخبر همتي وشعرت باليأس من قدرتي على القيام بما خططت له. لن يدعمني الإنكليز في موقفي ولن يؤيدوا قضيتي.

أمضيت ليلتي في ميلانو التي وصلها رستم حيدر وجورج لطف الله من باريس. كنت حانقًا على الذين ضيعوا البلاد وناقمًا لأنهم أوصلوني إلى هنا. قلت لرستم بعد أن سألني عن الذي جرى: إن جمعيتنا الفتاة سببت الخراب بعد أن دعمتها وسلمتها الحكومة، ظنوا أنهم يستطيعون أن يفعلوا في سوريا ما فعله الاتحاديون في تركيا، أرادوا عزلي وتنصيب عسكري، قوالون لا يعرفون غير الشعارات التي جلبت الهزيمة. بتّ ليلتي مغمومًا أفكر بالورطة التي وقعت فيها.

قررت أن أنزل في سرنوبيو على ساحل بحيرة كومو بانتظار مغادرة إيطاليا إلى سويسرا أو أي مكان آخر. اخترت بانسيون ستلا الهادئ والصغير، وطلبت من أعواني الذين يزدادون كل

يوم الاقتصاد في المصاريف. المكان هادئ هنا. يقصدني بعض الزوار الذين خبروا بوصولي إلى إيطاليا لكنني أشعر بالضيق والملل، والوشوشات كثيرة وأعواني الذين يأتون ويذهبون ليس لديهم غير تسقط الأخبار وتحليلها. كل واحد يعتقد نفسه فقيهًا في السياسة، وكل ما يقال يصلني لأن أحدًا لا يعرف كتمان السر، نوري يقول إنني أصبحت ضعيفًا بعد إعلان الملكية، أعد ولا أفي، أقرر شيئًا وأفعل غيره، وعدت بضرب اللجنة الوطنية واعتقال القصاب ولكنني رضخت للعربية الفتاة. لعل نوري على حق، كان يجدر بي أن أبطش بكل من يتفوه بكلمة لا يعرف مرماها ومغزاها. لكن نوري نسي أن يخبر بأنه تباطأ في نقل السلاح إلى درعا فسطا عليه الفرنسيون في ميدان القتال، وهو الذي لم ينس السيارة التي قُتل فيها يوسف العظمة فجاء بها إلى حيفا يريد أن يبيعها فنهاه الجابري. راسم سرادست يقول إنني لا أعرف الرجال ولا أعرف كيف أحافظ على الأصدقاء حتى تخلى عني الجميع! أي أصدقاء وأي رجال؟ الذين أرادوا تنحيتي أم الذين رفضوا كل حل اقترحته حتى عرضوا البلاد للاحتلال؟ نسيب البكري الذي يريد اليوم أن ينصب ملكًا على سوريا، أم عوني عبد الهادي الذي ظن نفسه أعلى قدرًا من غورو، أم الذي قبض من الفرنسيين ويدعي أنه أبو الوطنية؟

لم يعد عندهم سوى الانتقادات يوجهونها إليّ. عادل أرسلان يقول إنني متقلب وعدو النظام، ورستم يقول إنني لا أقدر الرجال ولا المسئولية وليست لي خطة أسير عليها.

ليست لي خطة أسير عليها لعله على حق. ولا بد لي من التحرك أو فعل شيء ما. قررت إيفاد رستم إلى روما للاتصال بالخارجية الإيطالية والوقوف على رأيها وإرسال إحسان الجابري للاتصال بالبلاشفة. لن أترك جهة إلا وأتصل بها. سأستفيد من علاقات عادل أرسلان بالألمان لعله يستطيع أن يصل معهم إلى شيء.

صرت أشعر بعجزي أكثر من أي وقت مضى. والدي يطالبني بالذهاب إلى لندن ولكن الإنكليز يطلبون مني التريث. وهو فوق ذلك يرسل البرقيات التي تشوش أفكاري! بعث إلى حبيب لطف الله يكلفه برئاسة الوفد العربي إلى بريطانيا! أعرف أنه لا يثق بي ويظن أنني لا أزال ولدًا، وهو لا يتخلى عن عناده في أشد الأوقات صعوبة. وصلتني أخبار عاجلة عن الحشود التي يهيؤها ابن سعود ضد الحجاز، فبعثت إلى الخارجية البريطانية أعلمهم بخطورة الوضع، وإلى والدي أستفسره عن الأخبار وعن تكليف لطف الله.

أصبح الجو ثقيلًا في سرنوبيو، وإقامتي هنا عارٌ عليّ، ولا مال لديّ. ثقتي بنفسي تتلاشى وصورتي أمام أعواني تنهار، وكل واحد فيهم يسعى إلى مصلحته، جورج لطف الله يريد أن يصبح أميرًا على لبنان أو حاكمًا على سوريا، وقد غرّه أن يكلفه والدي برئاسة الوفد وتمثيله في بريطانيا، لم يستح ولم يتورع عن تقديم النصح لي، طلب مني أن أستريح وأن أتجنب الكلام في السياسة، وأن أترك لساعده القوي دفة الأمور. ابن الخادمة يريد أن يعلمني ما أفعله!

علمت اليوم أن صبحي الخضر وفؤاد سليم غادرا شرق الأردن

إلى الحجاز ليطلبا من أخي عبد الله أن يأتي إلى معان ليقود الثورة ضد الفرنسيين، بعد أن فقد الرجال هناك الأمل بي!

وأنا نفسي أفقد الأمل بكل شيء. رجع الحصري من إستامبول ليخبرني بأن الأتراك يسعون إلى التفاهم مع الفرنسيين فلا أمل بالتعاون معهم. والأمل بمساعدة البولشفيك، كما أخبرني إحسان الجابري الذي رجع من زيوريخ بعد أن التقى أحد رجالهم، قد انهار بسبب هزائمهم في بولندا. وأفهمني عادل أرسلان أن الألمان لا يثقون بي ولا بوالدي.

لم يبق لي سوى العراق. يظهر من الأقاويل التي تنقل عن الإنكليز أنهم لا يرحبون بعبد الله ملكًا على العراق، أخبرني حداد باشا أنهم سألوه في الخارجية ثلاث مرات عن موقفي من المسألة. لكن عرش العراق يحرجني، فأنا الذي سعيت في ترشيح عبد الله له ولا يمكنني أن أقبل به دون العودة إلى رأي والدي الذي يتسلى في وضع العراقيل أمامي. أخشى في قرارة نفسي أن يتحول عرش العراق إلى مسألة عائلية فيفلت من بين أيدينا. والحق أنه لا شيء جدّي بهذا الخصوص، أرسلت نوري إلى لندن وحمّلته كتابًا إلى كورزون، أردت أن أعرف موقفهم من سفري إلى بريطانيا، وإذا كان متعذرًا فليعلموني.

والدي يطلب مني العودة إلى الحجاز، يريدني أن أقيم في الوجه، وأنا لا أرى فائدة من ذلك، سأكون مثل إخوتي وستكون نهايتي. الأبواب سدت في وجهي وحتى البلاشفة لم يتقبلوني.

ضاقت حالتي، وضاق الرجال بأحوالهم، إحسان الجابري جاء يستشيرني، قال إنه يريد أن يتوسط بعض أصحابه لينال عفوًا من الفرنسيين ليعود إلى حلب، قلت له تشبث ولن أميزك عن أخي زيد. أرسل والدي يطلب زيدًا، إذا لم يكن من بقائه فائدة في أوروبا رافقته إلى جنوة وبكيت عند وداعه.

عدت إلى كومو لأجد برقية من اللورد كورزون يخبرني فيها أن ملك بريطانيا سيكون مسرورًا بلقائي. انقلبت حالتي وشعرت بالاهتياج وبدأت استعداداتي للسفر.

(٢٥)

أرسلت رستم حيدر إلى روما من أجل التأشير على جوازات السفر. طلبت من إحسان الجابري أن يتصل بقنصل ألمانيا من أجل تسهيل مرورنا. في نهاية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، قبل أسبوع من موعدي مع اللورد كورزون، غادرت بالسيارة مع رستم وعادل أرسلان ومرافقي تحسين قدري قاصدين ڤيرونا التي وصلناها في المساء فبتنا ليلتنا فيها، وفي اليوم التالي تابعنا طريقنا عبر برنير إلى ميونخ حيث كان ينتظرني الدكتور غروبا الذي كلفته الخارجية الألمانية بمرافقتي حتى الحدود البلجيكية، تقدم لتحيتي ثم اندفع نحو تحسين قدري ليعانقه، دهشت للأمر قبل أن يخبراني بأنهما قد حاربا سويّة في درعا قبل أربع سنوات.

رافقنا غروبا في القطار من ميونخ إلى فرانكفورت حيث أمضينا ليلة أخرى، سهرت طرفًا من المساء مع الدكتور غروبا نتحدث في بعض الشئون العربية المكلف بمتابعتها. كان حذرًا في إبداء آرائه ومع ذلك فإن ملاحظاته بدت لي دقيقة وخصوصًا انتقاداته للفرنسيين. تابعنا في اليوم التالي سفرنا عبر كيسن متجنبين منطقة

الاحتلال الفرنسي، ولكن المصادفة جعلت الفرنسيين يبدلون مواقعهم قبل أسبوعين، ومن الغريب أن لا تكون الخارجية الألمانية على علم بالأمر. طلبت غروبا إلى مقصورتي وتشاورنا في المخاطر المحتملة، وقررت أن نتابع الطريق رغم خطر وقوعنا في الأسر. أطفأنا الأنوار في المقصورتين اللتين كنت أشغلهما مع رفاق سفري. انتابني القلق ولم أعد أطيق البقاء جالسًا أنتظر، خرجت إلى الممرّ وقد أطفأت سيكارتي ورحت أذرعه ذهابًا وإيابًا. رأيت عادل أرسلان الذي خرج يمسك بيده مسدسًا، لم يكن يريد أن يقع بأيدي الفرنسيين الذين حكموا عليه بالإعدام، وحين لمحني وسط الظلام تمتم بصوت منخفض: لن يقبضوا عليّ حيًّا.

توقف القطار في محطة هينف ومرت دقائق بطيئة مثقلة بالقلق قبل أن يصعد رجال الأمن الفرنسيون الذين بدءوا بتفتيش المقصورات، لكنهم تجاوزوا مقصورتينا المطفأتين. لبثت منتظرًا أحبس أنفاسي قبل أن يستأنف القطار سيره بعد ربع ساعة من التوقف.

وصلنا إلى الحدود البلجيكية حيث حضر غروبا إلى مقصورتي لوداعي بعد أن أتم مهمته، شكرته ولم أجد غير ساعتي الذهبية أقدمها له هدية وتذكارًا.

البرد شديد في لندن في آخر أشهر السنة التي لا أعرف كيف ستنتهي وإلى أين ستئول الأمور. جاءني يانغ من الخارجية ليبلغني بموعدي مع الملك ورجاني أن لا أدلي بتصاريح للصحافة حرصًا على حسن سير المباحثات وأن لا أثير المسائل السياسية مع الملك. كان لقائي بجورج الخامس بروتوكوليًّا، ولكنه اندفع في

الكلام وفاجأني حين بدأ يوجه انتقاداته إلى الفرنسيين. قال لي في ختام المقابلة: لا تقلق إننا نقف وراءك بقوة.

أفرحني تصريحه لي، بالرغم من أن شكوكي بسياسة الخارجية واللورد كورزن لا تزال قوية.

المفاوضات هنا في لندن مرهقة. لويد جورج يريد أن يعرف رأيي بعرش العراق. حقيقة الأمر أنني لا أزال متخوفًا من سياسة الإنكليز، أخبرته أنه لا يمكنني أن أوافق إذا لم يرشحني أهل العراق. يبدو لي أن المسألة دخلت في النقاش الجدي.

جاءني كورنواليس ليناقشني في الأمر ويقف على رأيي، قال إن من يذهب إلى العراق ينبغي أن يقبل بالماندا الإنكليزية. قلت له صراحة لن أقبل ما لم أعرف الشروط، وما هي الماندا؟ إذا لم تكن لخير العراق لا يمكنني أن أقبل بها.

دعاني كورنواليس للقاء اللورد ونترنن وهو أحد الضباط الذين التحقوا بي في العقبة ورافق جيش الشمال حتى دخوله إلى دمشق. سافرت إلى مكان إقامته خارج لندن وكان برفقة لورنس، وكان موضوع العراق مبسوطًا للنقاش، وجدتها فرصة سانحة لإبداء مرارتي من سياسة الخارجية الإنكليزية تجاه القضية العربية، وأخبرتهم أنني لن أقبل بعرش العراق إذا لم تتبدل السياسة وإذا لم أحظ بترشيح العراقيين أنفسهم.

لن أرشح نفسي، إذا أرادوني للعراق فلديهم وسائلهم. أعرف أنهم لن يجدوا غيري، ولكنني لا أقدر أن أثير المزيد من القصص

مع والدي، فليعملوا على إقناعه بذلك وليظهروا حسن نيتهم بكف يد اللورد كورزن عن دعم ابن سعود وإلحاق الأذى بالحجاز.

المفاوضات ما زالت متواصلة والآراء لم تصل إلى نتيجة حاسمة، والنقاش رجع إلى البداية، يفكرون بعبد الله للعراق ويستفيدون من خبرتي في الحجاز واليمن وبذلك يتجنبون إغضاب الفرنسيين.

تطورت الأمور سريعًا خلال شهر آذار/ مارس، غادر لورنس إلى القاهرة مع تشرشل، وطلب مني أن أنتظر بضعة أيام. لم تتأخر برقيته فقد أرسل يطلب إليّ أن أرجع حالًا إلى مكة، وقد سار كل شيء سيره المرغوب، لا تقل غير أنك ذاهب لمقابلة والدك وتجنب أي تصريح للصحافة.

(٢٦)

وحدي فوق هذه السفينة التي تعبر بي المتوسط مرة أخرى، تعيدني إلى بورسعيد في طريقي إلى الحجاز. أيام السفر طويلة والليالي بطيئة والصمت يحيط بي من كل جانب. إنها فرصتي الوحيدة والأخيرة، لم يتح لي من قبل أن أصفو إلى نفسي، ولن تتاح لي الفرصة بعد أن تطأ قدماي برّ مصر أن أمضي ساعة مع ذاتي. إنها مناسبة أواجه بها نفسي وأصفي حساباتي مع الماضي، الممالك ليست نساء، لا يمكنني أن أعيش مع واحدة وأفكر بأخرى، فقد انطوى عهدي مع سوريا كما تنطوي قصص الهيام المضنية. أما عرش العراق فأشبه بزواج مدبَّر سيطلبني أهل العراق من والدي وبعدها أوافق. وماذا لو رفض والدي!

أمضي وقتي في التفكير بالمستقبل، تنتابني مشاعر متناقضة تتأرجح بين الخوف والحماسة، أتوجس خشية من لقاء والدي، ومن عرش العراق، من هذا البلد الذي لا أعرفه، يقولون إن أهل العراق لا يُحكَمون ولم يتعودوا الطاعة للدولة، وتنتابني لحظات من الأمل واستعجال الوصول إلى بغداد، لو لم أكن قادرًا على

حكم العراق لما اتفق الجميع على اختياري وترشيحي، وحدي أملك جيشًا بضباطه، عشرات القادة من العراقيين كانوا معي في ثورتي، سأتكئ على مولود مخلص وجعفر ونوري وعلي جودة وعشرات آخرين ممن بقوا إلى جانبي حتى النهاية.

أتأمل ذاتي وتاريخي كأنني أنظر في مرآة أو أقرأ في كتاب، وأصرف الوقت في تدوين هذه الأوراق التي تحفظ قصة انتصاراتي وإخفاقاتي وأقداري، لا أكتب تاريخًا ولا مذكرات، لا خواطر أو رسائل، أردت حين عزمت على تسجيل هذه الأوراق منذ خروجي من دمشق أن أكتشف نفسي، ولعل من تتاح له فرصة أن يقرأ ما كتبته ذات يوم سيعرفني، أنا الذي لا أعرف نفسي إلا في نظرات الآخرين وآرائهم: يقولون إنني كريم حتى الجنون، وبسيط مثل بدوي في الصحراء، يقولون إنني داهية صموت، وإذا بدأت بالكلام لا أتوقف، يقولون إنني صبور وحكيم وضعيف ومتردد، وإنني ملهم وأملك سحرًا أمارسه على الناس فأخضعهم لإرادتي. لا أعرف أنني أقدر أن أكون كل هؤلاء جميعًا، لم أكن أفكر بالكرم حين أنفق المال، ولا بالصبر حين تجبرني الوقائع على الانتظار وكظم يأسي، لا أفكر بالصمت عندما أسكت ولا بالكلام عندما أتكلم، لم أفعل سوى ما أنا عليه، كنت في كل ما فعلته أظن أنني أقوم بما يمليه عليّ واجبي، لا تهمني آراء الناس وما يقولونه، ولكن يؤلمني أن يقولوا بأني فرطت بالبلاد. لو أردت العرش لبقيت على عرش سوريا ولكنني لم أبع البلاد ولم أشتر المُلك وسرت إلى الهزيمة على قدميّ حتى لا يقال بأنني قدمت مصلحتي على وطني.

وحقيقة الأمر لا يمكنني أن أجزم ما إذا كنت أنا الذي أصنع

الأحداث، أم أن الوقائع هي التي تسيّرني، ولطالما شعرت بأنني والتاريخ نسير جنبًا إلى جانب كصديقين أو رفيقي درب في الصحراء، يظن كل واحد في سرّه أن لا غنى لرفيق دربه عنه، مرة يقودني ومرة أقوده، حتى حسبت أن التاريخ قد فارقني، غدر بي وسلمني إلى أعدائي. لكنني عدت لألتقي به لنمضي في طريق طويل لا ينتهي، سأسعى في استلام قيادة الرحلة، لكنني أعرف أن التاريخ رفيق درب صعب المراس، لقد خبرته، أعرف نزواته وثوراته وانقلاباته، لكنها الصحبة الوحيدة التي تستحق أن تُعاش.

أعرف أنني محكوم بمصيري، لم أشأ المُلك أول مرّة، وها هو ينقاد لي مرة أخرى. ولا أعرف رواية حكم على بطلها أن ينشئ من العدم مملكتين. لقد ظننت أنني قد بلغت نهايتي يوم ودعت ملكي وتشردت في القطارات. لكن الأقدار دعتني مرة أخرى لأعتلي المنصة، وأكون واحدًا من صناع هذا العصر. أعرف الآن صعوبة اللحظات التي مرت بي، وأدرك معنى الانتصار واليأس. ليست سوى أقدار، لقد وجدت نفسي وسط آلاف الرجال يهتفون وينقادون لي، وصرت رمزًا لعروبة اقترنت باسمي. صنعتني الوقائع بقدر ما صنعتها، لم تكن العروبة سوى فكرة فصنعت منها جيشًا وثورة ومملكة، كونتها على شاكلتي فحملت خصالي وصارت تشبهني في هياجي وصمتي وترددي.

أعرف أنني خجول، أضطرب في المواقف الصعبة، لكنني لا أخاف الموت، ولا أخشى الصعوبات، ولطالما أشعلت العثرات في نفسي الطاقة على العمل. لكنني لست مدعيًا، ولعل تواضعي هو الذي طوّع لي الرجال، كنت معهم أقاسمهم عيشهم وأستمع

لهمومهم، كل واحد منهم يظن أنني أخصه بصداقتي، لم أصانع، فهذه هي طبيعتي وسجيتي إذا ما جلست مع شخص أحسبه صديقي الوحيد فأبثه أفكاري وهواجسي حتى يظن أنه سمع مني ما لم يسمعه شخص آخر. لم أميز بينهم، وصفحت عن أخطائهم وهفواتهم، أعرف ضعفي وأعرف ضعف البشر، ولكنني أعرف ميزتي وفي سريرتي أومن أنني سليل النبوة، تلك وحدها الصفة التي أريد أن يدركها كل من يعرفني.

يحيرني أمر نفسي التي لا تعرف الفرح، كأنني محكوم بالحزن. كنت أقرب إلى القنوط حين جاءوا يبايعونني ملكًا. وها أنا اليوم في طريقي لأستلم عرشًا آخر، فلا أميز من مشاعري غير تلك التي تشوبها الكآبة.

لقد تغيرت، أعرف أن التجارب قد بدلتني، وأسفاري قد علمتني الكثير مما كنت أجهله. تغير العالم ولا بدّ لي أن أتغير. لأن الزمن الذي نشأت فيه قد انقضى ولم يبق منه سوى العلامات، لعلّني أنا نفسي صلة تربط بين عالمين، محكوم بأن أنقل شعبي من زمن إلى آخر. زمن تصنعه العقائد والأفكار والمصالح، لا حساب فيه لكلمات الشرف والشجاعة والحب. لست قائدًا عسكريًّا مثل مصطفى كمال، ولا زعيم أمّة مثل سعد زغلول ولا أرأس حزبًا مثل لينين أو موسوليني، ولا أشبه واحدًا من رؤساء الدول الذين قابلتهم وفاوضتهم فلا أملك وزارات ومستشارين وأساطيل. كانت دولتي خيمتي ومملكتي عباءتي، لم يكن لديّ في درعا غير خيمة أنصبها لأستقبل رؤساء العشائر، وحين غادرت تلاشت المملكة ولم يبق منها غير الحلم، فما هي الممالك إن لم تكن أحلامًا وأوهامًا.

لا أعرف، كل ما أعرفه هو أنني كنت حاضرًا حيث يجب أن أكون.

سأتعلم من أخطائي، لن أنصاع ولن أضعف أو ألين ولن أسلم لأحد أوراقي وأحلامي، أعرف أنها مهمة صعبة، فليس سهلًا أن تصنع دولة ومملكة! لديّ خبرتي على أي حال.

ليست مهمة سهلة، ما زال أمامي صعوبات وعقبات، لا أفكر بالعراق، ولكنني أفكر بوالدي، أهون عليّ أن أقنع شعبًا من أن أقنعه برأيي. تُرى ما الذي سيقوله لي، بعد أربع سنوات من لقائي به آخر مرة؟



(٢٧)

كان زيد ينتظرني في مرفأ بورسعيد. كنت متلهفًا لسماع الأخبار منه، في القطار الذي نقلني من بورسعيد إلى القاهرة، جلسنا سويّة نتبادل الأخبار كشقيقين متشوقين ليسمع كل واحد الأخبار من الآخر. أخبرني عن عائلتي وابني الصغير غازي الذي بات متعلقًا بجده الذي يرعاه، أخبرني عن علي الذي يعاني كل يوم من عنت والده. ضحكت حين أخبرني ما قاله عبد الله الذي انتقل إلى عمان مع حاشيته، في الخريف الماضي، بعد أن سمع بشأن عرش العراق: ما الذي يعجبهم في شخص أضاع ملكًا واغتصب آخر؟!

لعبد الله طريقته في التعليق على الأمور فنبع سخريته لا ينضب.

لكن أخبار والدي هي التي أقلقتني، أصبح كثير النسيان، دائم الشكاية والخوف من خطط الإخوان وابن سعود، وقد ازداد عنادًا وتشبثًا برأيه، يشك بأقرب الناس إليه ولا يستمع لمشورة أو رأي.

أخشى موقف والدي، وأخاف أن يستبد برأي يعرض له، أو تنتابه موجة من الغضب فيرفض سفري إلى العراق.

نزلت في أوتيل كونتيننتال عند وصولي إلى القاهرة. جاء لورنس ليخبرني بما تمّ، والترتيبات التي قطعت شوطًا؛ أجمع كل من حضر المؤتمر على ترشيحي لعرش العراق، لن أقدم نفسي ولكن العراقيين سيطالبون بي ويرسلون إلى والدي يحثونه على إيفادي إلى بغداد. تأثرت، حين روى لي لورنس ما كان من شأن أخي عبد الله حين ذهب تشرشل للقائه في القدس، وحين فوتح بشأن العراق، قال لا فرق بيني وبين أخي. لقد حفظ عبد الله كرامتنا، وسأبقى مديونًا له طوال عمري.

جاء إليّ في مقر إقامتي كل الذين غادروا إلى مصر من قبل، أسعد داغر وأحمد قدري، ودعوت كل من جاء لزيارتي ليلتحق بي، أخبرت كلًّا بمفرده بأني سأبدأ بداية جديدة في العراق. انهمكت بترتيب شئون العراقيين الذين لم يصدر عفو عنهم، سيتقاسم جعفر ونوري الاتصالات بالضباط ويتولى المندوب السامي مع نائبته المس بيل إقناع السادة والوجهاء ورؤساء القبائل بتسليمي عرش بلادهم.

لم يبق سوى أن أذهب إلى مكة لأكون إلى جانب والدي حين تصل الوفود العراقية.

كان الاستقبال الذي أعدّ لي في جدة رائعًا، أعاد إليّ الثقة في نفسي. مشايخ ورؤساء عشائر وهجانة وجنود ممن رافقوني في جيش الشمال حضروا لاستقبالي، أطلقوا الرصاص ابتهاجًا ورفعوا أصواتهم بالأهازيج، جاء الشريف ناصر ومرزوق الكحيمي، وكان ابني غازي برفقة أخي الأمير علي. دمعت عيناي حين رأيته، تقدم

صوبي فحملته ورفعته إلى صدري. كان لا بدّ أن أمضي مباشرة إلى مكة لألتقي والدي. لا أدري ما سيكون من شأن هذا اللقاء، دخلت إليه في حجرته، تقدمت صوبه وقبلت يده وجلست بين يديه أشرح له نتيجة اتصالاتي، أنظر إلى وجهه وأنتظر ردود فعله.

لقد تغير والدي، كان يستمع إليّ شاردًا، وقد أصبح شيخًا عجوزًا، وبالرغم من استبداده وخشية الجميع من غضبه، لمحت في عينيه خيبات الأمل المتراكمة التي عاناها. لم يحظ بغير الخيبة ونكران الجميل، لم يفهم العالم الذي يدور حوله، كان ينتظر وقد بذل أقصى ما يمكنه حين انقلب على الدولة العثمانية، أن يحظى بما يساوي التضحية التي أقدم عليها، ولكن أحدًا لم يكن يعبأ بشيخ قبيلة عنيد وكثير المطالب.

خلق عالمه وأسر نفسه في داخله، لست أدري أي نوع من الحكام هو، يباشر كل شيء بيده، ولا تفوته شاردة أو واردة، حتى جريدته القبلة يحررها بيده ويظن أن العالم بأسره ينتظر صدورها ليقرأ مقالاته. لا يستمع إلى أحد ولا يقبل استشارة ولا رأيًا.

في قرارة نفسي أحمل إعجابًا به وخوفًا من غضبه وبطشه، وأعرف تعلقه بأولاده ولا ينتظر منهم غير الطاعة، لكنني لم أتفق معه في الرأي، وأدرك اليوم أكثر من أي وقت مضى أنني أنتمي إلى عالم مختلف وزمن آخر.

لم يكن عرش العراق هو مصدر قلقي إبان إقامتي في مكة منتظرًا، ولكن أحوال الحجاز والتهديدات التي تحيط به أشعرتني بالخطر. أصبح والدي عقبة في وجه أيّ حلّ وكل عرض يقدم له، يماطل

ويسوّف ويهدد بالاستقالة. ما زال يتحدث عن رسائل مكماهون، يريد أن يعيد الزمن إلى الوراء يطلب أن يكون العراق تابعًا له مع فلسطين، وأن يعود ابن سعود إلى حدود نجد.

أصبح والدي خطرًا على نفسه وأولاده وخطرًا على الحجاز. فاتحت عليًّا وزيدًا بشأن خلافته، واقترحت أن يتولى عليّ المُلك مكانه، لكنه رفض، قال: لو فعلنا سيقول الناس إننا أبعدناه طمعًا بالمُلك ولن يعرفوا حقيقة دوافعنا ـ كان عليّ زاهدًا ومستسلمًا وهو يدرك في أعماق نفسه بأن والدنا لن يترك له شيئًا يحكمه.

كان عليّ الانتظار في مكة، أذهب كل يوم إلى مجلس والدي فلا يأبه لحضوري. أعرف أنه لا يكف عن النظر إليّ كولد عاق، وهو ينظر إليّ الآن كعاطل عن العمل. كانت الرسائل تصله من العراق تحمل تواقيع وجهاء وسادة يطلبون إيفادي إلى بغداد، وكان يتحرّى عن الأسماء ويفحصها ويسأل عن صاحب كل توقيع. ومع ذلك لم يكن يطلب حضوري حين كانت تأتيه وفود العراقيين فيجتمع بها مع بعض أعوانه دون أن يطلب مشاركتي أو الاستماع إلى رأيي.

لم يكن ليعتبر رأيي مهمًّا، ولم يأخذ يومًا برأي أحد من أولاده. وحين جاء وفد برئاسة الشيخ محمد رضا الشبيبي اجتمع بالقادمين واستمع إلى مطالبهم، وحين فرغوا من كلامهم، أجابهم: لقد اخترتم ولدي عبد الله من قبل والآن تختارون فيصل الذي أودعته عند جدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، والآن سأودعه عندكم. لقد

أصبح فيصل بلا شغل بعد أن خرج من سوريا، ولهذا فإني سأرسله إلى بغداد قريبًا.

آلمني جوابه حين عرفت بما جرى بينه وبين وفد العراقيين، لكنني كظمت غيظي كعادتي.

لم يخبرني والدي بما جرى ولما يفاتحني بالأمر. وفي المساء اجتمع بأعضاء الوفد فوق سطح الدار وتبادل معهم أطراف الحديث. وحين أخبره نور الياسري بأن فيصلًا سيكون موضع ترحيب أهل العراق، أبدى والدي حذره وقال: ولكنني أخشى يا شيخ أن يعامل أهل العراق فيصلًا كما عاملوا جدّه الحسين من قبل.

فأجابه السيد علي البازركان: يا سيدي لقد تغيّر الزمان، وأهل العراق ليسوا كأسلافهم في زمن الحسين بن علي عليهما السلام وسيقومون بإكرامه وخدمة ملكهم.

ضرب والدي كفًّا بكف وصاح: يا عيال نادوا فيصل، وحين دخلت على الموجودين قال لي: الشيخ علي شرح لي صفات الذين يطالبون بك، ويرجح سفرك إلى العراق قريبًا فهيّئ نفسك للأمر.

تهيأت للسفر، وكنت أود أن أغادر مكة بأسرع ما يمكن. شعرت بداخلي بمرارة معاملة والدي لي، ويئست من إصلاح أحواله. وقررت ألا أعود إلى الحجاز أبدًا.

لم يرض والدي أن ترافقني عائلتي، كان يظن بأن العراقيين لم يتبدلوا منذ أيام الإمام الحسين. ودعته وودعت عليًّا وزيدًا، وركبت

الباخرة المبحرة إلى البصرة، وانصرفت أفكاري إلى العراق وقد استعدت همتي ودبّت الحماسة في نفسي.

لكنّ شيئًا من القلق داخلني، لقد حذروني من العراق وعشائره وطوائفه وأقوامه التي لم تعتد يومًا على طاعة ملك أو رضوخ لدولة، وتوجّست خشية مما سأواجهه عند وصولي إلى بغداد، وسرعان ما كبر الخوف في نفسي وانتابتني الهواجس، ماذا لو عاملني العراقيون كما عاملوا جدّي الإمام الحسين من قبل، ماذا لو قتلوا أولادي من بعدي، ماذا لو كان والدي على حق؟

جدول تاريخي

١٨٨٣ ـ ولادة فيصل بن الحسين

١٨٩٦ ـ يغادر مع والده إلى إستامبول بدعوة من السلطان عبد الحميد، حيث تستمر الإقامة فيما يشبه المنفى مدة ١٣ سنة.

١٩٠٨ ـ الانقلاب الدستوري في إستامبول وعزل السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش.

١٩٠٩ ـ العودة إلى الحجاز بعد تعيين الشريف حسين أميرًا على مكة.

١٩١٣ ـ فيصل نائبًا عن جده في مجلس المبعوثان (النواب) في إستامبول.

١٩١٤ ـ نشوب الحرب العالمية الأولى.

١٩١٥ ـ مراسلات بين الشريف حسين والسير مكماهون (ممثل ملك بريطانيا في مصر) التي تضمنت وعدًا بإنشاء مملكة عربية.

١٩١٦ ـ مايو، اتفاقية سايكس بيكو التي تنص على تقاسم النفوذ الإنجليزي الفرنسي في المشرق.

١٩١٦ ـ ١٠ يونيو، إعلان الثورة العربية في مكة.

١٩١٧ ـ يناير، احتلال مدينة الوجه، قرب تبوك في أول تقدم بارز لجيش الثورة.

١٩١٧ ـ يوليو، احتلال مدينة العقبة وانفتاح طريق سوريا أمام جيش الشمال.

١٩١٧ ـ نوفمبر، وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور يعد بإقامة وطن للشعب اليهودي على أرض فلسطين.

١٩١٨ ـ ٢ أكتوبر، دخول فيصل إلى دمشق.

١٩١٨ ـ ٣٠ أكتوبر، إعلان انتهاء الحرب العالمية الأولى.

١٩١٨ ـ ١٧ نوفمبر، فيصل يغادر إلى فرنسا للاشتراك في مؤتمر الصلح. ويفشل في إقناع الدول باستقلال سوريا، بسبب تعنت فرنسا وتراجع بريطانيا عن وعودها.

١٩٢٠ ـ ٨ مارس، المؤتمر السوري يعلن استقلال سوريا وينصب فيصل ملكًا، وتعيين رضا الركابي رئيسًا للحكومة.

١٩٢٠ ـ ٢٤ يوليو، معركة ميسلون، قرب دمشق بين الجيش العربي والمتطوعين والجيش الفرنسي بقيادة الجنرال غورو. انهزام الجيش العربي واستشهاد وزير الحربية يوسف العظمة.

١٩٢٠ ـ ٢٥ يوليو، فيصل يغادر دمشق متوجهًا إلى أوروبا، وبعدها إلى الحجاز.

١٩٢١ ـ ١٢ يونيو، يغادر مكة متوجهًا إلى البصرة.

١٩٢١ ـ ١٦ يوليو، المندوب السامي البريطاني يتوج فيصلًا ملكًا على العراق.

١٩٣٣ ـ ٨ سبتمبر، وفاة الملك فيصل في سويسرا التي وصل إليها لإجراء فحوصات، دفن في بغداد.



إصدارات المؤلف

- **اكتشاف التقدّم الأوروبي** - دار الطليعة بيروت ١٩٨١.

طبعة ثانية بعنوان: المسلمون والحداثة الأوروبية رؤية، القاهرة ٢٠١٠.

- **الصورة التقليدية للمجتمع المديني** - منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٨٣.

طبعة ثانية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٨.

- **المصطلح الوثائقي** - منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٨٦، طبعة ثانية المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٨.

- **تطوّر النظرة الإسلامية إلى أوروبا** - معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٦.

طبعة ثانية، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠١٠.

- **كاتب السلطان، وحرفة الفقهاء والمثقفين** - رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ١٩٩١.

- **يوم الجمعة، يوم الأحد** ـ دار النهار، بيروت ١٩٩٤، ١٩٩٥، ٢٠٠٨. صدرت له ترجمات بالفرنسية والإيطالية الإسبانية والألمانية عن المؤسسة الأوروبية للثقافة ١٩٩٦، وصدرت له ترجمة إنجليزية في أستراليا ٢٠٠٥.

- **حارات الأهل، جادّات اللهو** ـ دار النهار ١٩٩٥-١٩٩٦. ترجمة إلى الإنكليزية ـ دار Palgrave Macmillan نيويورك ٢٠١١.

- **بوابات المدينة والسور الوهمي** ـ دار النهار ١٩٩٧ ـ ٢٠٠٨.

- **حكاية فيصل** ـ رواية، دار النهار ١٩٩٩-٢٠٠٨.

- **الخسيس والنفيس** ـ الرقابة والفساد في المدينة الإسلامية، رياض الريس للكتب والنشر ٢٠٠٨.

- **العلماء والفرنسيس في تاريخ الجبرتي** ـ رياض الريس للكتب والنشر ٢٠٠٨.

- **مدينة على المتوسط «ثلاثية»** ـ دار الشروق القاهرة ٢٠١٠.

حكاية فيصل

«كانت تشغلني فيما مضى الأحداثُ عن تدوين أخبارها، وكنت أظن أن صنع التاريخ أجدى من وصفه، حين تكون وسط الحدث لن تجد متسعًا من الوقت لتسجيله. كنت في سباق مع الزمن، في سباق مع التاريخ الذي كنت أصنعه وفق أفكاري وقراراتي حتى صار يشبهني وينتسب إليَّ، وصارت الدولة التي أقمتها مقرونة بي يسمونها باسمي أو لقبي الشريفي. ولا شك بأن الهزيمة هذا الصباح ستكون هزيمتي وحدي.

ما الذي يمكن لملك أن يحمله من مملكة ضائعة؟ أوراق، وثائق، مذكرات، ذكريات... وأحلام مهدورة! لا يمكن أن تحمل مملكة فوق ظهرك، ولا تستطيع أن توضِّب مملكة في قطار».

تدور أحداث هذه الرواية في لحظة الهزيمة، بعد أن اضطر الملك فيصل لأن يغادر عاصمة ملكه دمشق بعد الانهزام أمام الفرنسيين في معركة ميسلون. إنها لحظة تاريخية ورمزية في الوقت نفسه، كما هي شخصية فيصل في الرواية التي تتيح للراوي البطل أن يتذكر كل مراحل الثورة في رحلة المغادرة التي ستقوده إلى مملكة أخرى ليصبح ملكًا على العراق.

خالد زيادة، أستاذ جامعي وباحث، له العديد من المؤلفات. يشغل حاليًا منصب سفير لبنان في جمهورية مصر العربية، والمندوب الدائم لدى جامعة الدول العربية.
صدر له عن دار الشروق «مدينة على المتوسط - ثلاثية» (٢٠١٠).


ISBN 978-977-09-3112-7

9 789770 931127

دار الشروق
www.shorouk.com